أخطاء التفكير المعيقة للنهوض

30 خطأ تؤدي للتخلف وضعف الفاعلية والإنتاجية

بقلم
د. حذيفة عكاش

مؤسسة رؤية للفكر

أخطاء التّفكير

المعيقة للنّهوض

٣٠خطأ في التّفكير تؤدّي إلى التخلّف

وضعف الإنتاجيّة على صعيد الفرد والمجتمع

تقديم

د. جاسم سلطان

تأليف د. حذيفة عكاش

مقدّمة المفكّر الإسلاميّ:

د. جاسم سلطان

بسم الله الرحمن الرحيم

عالم الأفكار هو أقوى عوالم الوجود الإنساني، فبه يكون الإنسان، وبه يتخذ القرارات التي يدير بها عالم علاقاته ومشاريعه.

وأكبر أزمات أي أمة حين تبتلى بطرق التفكير غير المنتجة، وبخلل في عمليات التفكّر ذاتها.

كتاب الدكتور الكريم " حذيفة عكاش "يصبّ في مسار صعب، وهو تصحيح عالم الأفكار ومناهج التفكر لدى القارئ.

وما أحوج مجتمعاتنا لتلك الاستقامة الفكرية، وتلك التوجيهات النفيسة، فإنشاء جيل جديد يعني تزويده بمسطرة عقلية قويمة، فما استقبال الدين، وحسن تمثله، ولا إدارة شؤون الحياة إلا ثمرة فكر قويم.

هنيئاً لنا بهذا الكتاب، والشكر موصول للدكتور حذيفة على هذا الكتاب الماتع ووقتاً نافعاً للقارئ الكريم.

د جاسم السلطان

مقدّمة

حاجة الإنسان إلى التفكير وإعمال العقل لا تقلّ عن حاجته إلى الطعام والشراب، فالتفكير حال تلازم الإنسان بدءاً من أصغر الأشياء وانتهاء بأعقدها.

والسباق اليوم بين الدول بات سباقاً فكرياً بامتياز، وباتت الأمة التي تستطيع تنظيم أفكارها وعلومها وتطويرها، واستثمار هذه العلوم بما يخدم الشعب مادياً ومعنوياً هي الأمم الأكثر تقدّماً.

والمسلمون اليوم بأمس الحاجة إلى الاهتمام الدائم بالعقل والفكر ونتائجه، لأنهم أمة "اقرأ" وأمة "يتفكرون".

فكثيراً ما يتمّ التركيز في الخطاب الديني على الاهتمام بالأخلاق، والالتزام السلوكي بتعاليم الدين، والاهتمام بالروح، ولا يُعطى الاهتمام بالعقل المكانة التي يستحقها، ولا الاهتمام باستثمار هذه النعمة الكبرى التي ميّز الله بها الإنسان عن سائر الكائنات الاهتمام الذي يليق بمكانته.

فالذي أعتقده أنّ الله فضّل الإنسان على سائر المخلوقات بـ (العقل)، {وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ، وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ، وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ، وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً} [الإسراء:٧].

فالعقل وما يتضمنه من حرية الاختيار، وما يقتضيه من التكليف، وما ينتج عنه من الحساب، هو أساس الأمانة التي عرضها الله على السموات والأرض فأبَيْن أنْ يحمِلْنَها وأشفَقْنَ منها وحملها الإنسان، واختراعات العقل واكتشافاته ومنجزاته أمور تستحق التقدير، وتستدعي الوقوف على عظمة الخالق الذي أبدع هذا المخلوق العاقل.. فسبحان من خلق الإنسان في أحسن تقويم.

لماذا هذا العنوان؟

كيف تكون أخطاء التفكير من أسباب تخلّفنا، وتعيق نهضة مجتمعاتنا وتطوّر بلداننا؟

إنّ كلّ مشروع مبدع خلفه فكرة مبدعة، وكل مشروع فاشل خلفه أفكار فاشلة، أو إدارة فاشلة! فالتفكير يؤثّر على السلوك والعواطف والكلام والقرارات والآراء والقبول والرفض، وحتى نصل إلى أفكار سليمة لا بدّ من اعتماد طريقة تفكير سليمة، وتجنّب أخطاء التفكير، فأخطاء التفكير مثل الفيروسات التي تعشّش في برنامج تشغيل الحاسوب، فتعيق حركته وانسيابه، وقد تؤدّي إلى شلله وتعطّل عمله!

وكذلك أخطاء التفكير.. تعيق عمليات التفكير في عقولنا، وتحرف تفكيرنا عن المسار الصحيح، وقد

توردنا المهالك! وبعضها قد يشلّ فاعلية صاحبها! كما سيظهر جلياً عند الاطلاع عليها.

فأخطاء التفكير من أهم أسباب تخلّفنا، لذلك تجد أنماطاً خاطئة للتفكير تسود البيئات المتخلّفة، بينما تنتشر منظومات فكرية غيرها في البيئات المتقدمة.،حتى على صعيد الأفراد، فطريقة تفكير الناجحين مختلفة عن طريقة تفكير الفاشلين!

وقد كنت كلّما ناقشت معضلة ما مع أستاذي الكبير الدكتور: " عبد الكريم بكّار " حفظه الله يؤكّد على أهمية طرائق التفكير ومنهجيتها السليمة، وأنها من أهم المهمات، ومن أَولى الأولويات الجديرة باهتمام المصلحين، وقد استفدتُ في تحضيري لهذا الكتاب من كتاباته حفظه الله، وبخاصة كتابه: (خطوة نحو التفكير القويم) فقد كان أصل التحضير منه، ثم توسّعت في غيره من الكتب، كما لا أنسى أستاذي الحبيب الدكتور: "جاسم سلطان" الذي كان لقاؤه والتأثر به من أهم محطات حياتي الفكرية، وقد استفدت وتأثرت بغيرهم من المؤلفين والمفكرين، ومن النقاشات والجدالات الدائرة على الساحة الفكرية.

وقد كان أصل الكتاب حلقات مرئية، تمّ عرضها على بعض الفضائيات ونشرتها على اليوتيوب، وقد نالت بفضل الله استحسان الكثيرين، فعدت إليها شارحاً ومدققاً ومتوسّعاً ببعض الموضوعات، فالكتاب يسمح بالتفريع والتوسّع أكثر من البرامج التلفازية.

وهنا قد يبرز لنا هذا السؤال: هل هي أخطاء في التفكير؟ أم أخطاء في التعبير؟

الحقيقة هي أخطاء في التفكير، فالتعبير ما هو إلا أداة لتوصيل المعاني والنتائج والأفكار التي نعتنقها، لذلك عرّف المناطقة الإنسان بأنه (حيوان ناطق) أي مفكّر، لذلك لو تكلم إنسان أمامنا بأفكار نراها خاطئة، نقول له:

- ما هذا الكلام!؟ أنت كيف تفكّر؟!

لماذا التركيز على أخطاء التفكير:

لأنها سنة الصحابي الجليل حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قال:

- (كانَ النَّاسُ يَسْأَلُونَ رَسولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عَنِ الخَيْرِ، وكُنْتُ أَسْأَلُهُ عَنِ الشَّرِّ مَخَافَةَ أَنْ يُدْرِكَنِي) [رواه البخاري ومسلم]،

ولأن التخلية قبل التحلية، ولأن التنبيه على أخطاء التفكير تقع تحت الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بشكل أو بآخر، ولأن تلك الأخطاء تفسد الصواب وتعكّر التفكير، كما أنّ درء المفاسد مقدّم على جلب

المصالح، فالانتباه إلى طرائق التفكير الخاطئة مقدّم على التركيز على طرائق التفكير السليمة، ولأن كلّ قراراتنا مبنية على العقل، فلا بد أن نُرشّد العقل، ونحسّن تفكيرنا.

ونظراً لكثرة المعلومات التي نغرق بها عبر وسائل التواصل والكتابات والفيديوهات في أيامنا هذه، لا بدّ لنا من منهجيات ومهارات تفكير لنُحسن التعامل معها، ونرشِّد حواراتنا وأساليب جدلنا ونقاشاتنا.

ولو تأملنا نقاشاتنا الأسرية، وفي العمل، وبين الأصدقاء، وعلى وسائل التواصل، وحواراتنا في وسائل الإعلام؛ نجد أننا عند الاختلاف نتهم بعضنا بدلاً من مناقشة الفكرة، نختلف دائما ولا نكاد نتفق على شيء، والحقيقة أنّ المشكل في طريقة تفكيرنا!

إذ لا يوجد عندنا قواعد مشتركة تضبط أخطاء تفكيرنا وتنبه إلى عيوبه.. وأرجو أن يسهم هذا الكتاب في إيجاد لغة مشتركة ومصطلحات منضبطة نستخدمها عند النقاش وتسمي لنا الخطأ الذي نرتكبه.

والذي آمله أن تصبح العناوين مصطلحات منتشرة تعبّر عن المعاني المذكورة تحت كل عنوان منها، فإذا تكلّم أحدٌ أمامنا، أو قرأنا كلاماً، أو تأمّلنا عملاً فنياً يحوي أحد هذه الأخطاء، نختصر التعليق عليها بقولنا:

- هذا (تفكير مؤامراتي)، أو (تفكير رغائبي) أو (تفكير سلبي) وهكذا.

فتغدو هذه الأسماء معبرة عن المعاني المختزنة تحتها، فنختصر الكلام والنقاش، مثل أسماء المغالطات المنطقية يكفي الإشارة لاسم المغالطة كقولنا: (مغالطة رجل القشّ) مثلاً.. حتى نتذّكر كلّ معناها وجوانب المغالطة فيها، ولو جادَلَنا أحدٌ بصواب كلامه ولم يسلّم بخطئه، يمكننا أن نستحضر الكلام تحت هذه العناوين ونناقشه بها.

ملاحظة أخيرة: ثمة بعض عيوب التفكير وأخطائه تتكرر معنا في مواضع عدة، وهذا يدلّ على حجم هذا العيب، ومدى انتشاره وخطورته وقدرته على الظهور بأشكال مختلفة.

وأرجو لقارئ هذا الكتاب أن يختلف -بعد قراءته- أسلوب تحليله للأحاديث والأفكار التي تعرض أمامه، سواء كانت كلاماً مكتوباً أو مسموعاً أو مرئياً، إذ ستصبح لديه نظرة ثلاثية بل رباعية وخماسية الأبعاد.. وسيتنبه إلى الكثير من المغالطات وطرائق التفكير الخاطئة التي كان يسمعها سابقاً دون الانتباه إلى خطورتها!

أسأل الله أن يبارك هذا العمل، وأن يتقبّله عنده، وأن يكون لبنة مباركَة تسهم في ترشيد الطريق

لنهضة أمتنا.

د. حذيفة عكاش

٢٠٢١/١١/١٤م استنبول

التفكير والتفلسف

بداية دعونا نعرّف "التفكير"،

هو: إعمال العقل وتشغيله في الموجودات للوصول إلى المطلوب المجهول.

فالرأي الذي يصل إليه العقل بعد التفكير هو المطلوب، سواء كان نتيجةً أو تحليلاً أو تركيباً أو تطبيقاً أو تقويماً أو تصحيحاً أو نقداً، أو فكرةً إبداعيةً.

فالمقصود بالتفكير هو التعمّق والتأمّل وتقليب الموضوع المفكّر فيه على وجوهه، والنظر في منشئه وأسبابه وأحواله ومآلاته، وليس المقصود به باديَ الرأي والتفكير السطحي السريع، الذي لا يبذل فيه المرء جهداً، ولا يتريّث في إصدار نتيجة تفكيره فيه.

يقول ابن القيم: "الرأي ما يراه القلب بعد فكر وتأمّل وطلب لمعرفة وجه الصواب"[١].

إن التّفَلْسُف بهذا المعنى نوعٌ راقٍ من التفكير، ومن عوامل انتشار الأخطاء في التفكير في مجتمعاتنا جفول الوعي الإسلامي السنّي[٢] عن الفلسفة في وقت مبكر، فقد فهمنا من حجة الإسلام الغزالي[٣] أنه يحرّم الفلسفة كلّها حينما ألّف كتابه الشهير تهافت الفلاسفة، والحقيقة أن الغزاليّ انتقد نوعاً معيّناً من الفلسفة؛ وهي الفلسفة المادية التي تنكر ثوابت الدين، ولم ينكر المنهج الفلسفي في التفكير، الذي يعني: التعمّق في التفكير، وعدم قبول المعرفة إلا بعد شك منهجي، ولا تثبت المعرفة بعد الشك إلا إذا اعتمدت على الحجج والبراهين، ولم تكن تقليداً أو تسليماً تلقائياً.

فالتَّفَلْسُف بمعنى: "التعمّق في المعاني والتجريد والربط بين المفاهيم لإنشاء النظريات"، لا يمكن للإنسان التحضّر والتقدّم من دونه.

وقد مارس علماؤنا الفلسفة ولم ينقطعوا عنها، بخاصة علماء العقيدة الذين نافحوا عن تعاليم الدين، فقد تفلسفوا حينما دافعوا، بما فيهم الغزالي وابن تيمية وابن القيم وغيرهم رحمهم الله..

فالفلسفة تُطلق على شيئين:

---

(١) إعلام الوقعين لابن القيم، (١٢٤/٢)، (السعودية: دار ابن الجوزي، ط:١).

(٢) المدرسة الشيعية لم تقطع علاقتها بعلم الفلسفة، كما أنّ الإخوة في المغرب العربي لم يقطعوا علاقتهم مع الفلسفة مثلما فعل العرب في المشرق العربي بشكل عام.

(٣) وهو من أكثر الشخصيات المسلمة تأثيراً في تاريخ الإسلام العلمي.

الأول: المباحث الفلسفية، والنظريات الفلسفية، والآراء الفلسفية.

الثاني: المنهج والطريقة الفلسفية، للوصول إلى الآراء والنظريات الفلسفية.

فالنوع الأول وهو "المُنتَج الفلسفي" قد تتفق معه وقد تختلف، أما النوع الثاني وهو "المنهج" فالمفروض أن يكون مقبولاً ومطلوباً.

كما أنّ الفلسفة لا تقتصر على المباحث الثلاثة المعروفة (الوجود والمعرفة والقيم) بل تتناول كلّ شيء في الحياة بتعمّق.

إن التفلسف يشمل كلّ العلوم، فمن يتكلم بنظريات العلوم، أو بالنظريات في علم من العلوم، أو الكليات في باب من الأبواب، إنما يقوم بفِعل فلسفيّ، فكل تجريد للمعاني، وكلّ ربط بينها، وكل إنشاء لنظرية أو حكم عقلي تحليلي أو تركيبي أو تقويمي أو تقديم فهم آخَر، هو فعل فلسفيّ.

كما أنّ الفلسفة بمعنى: "التعمّق بالتفكير وعدم الاكتفاء بالظواهر"؛ لا لغة لها ولا زمان ولا مكان ولا دين ولا علم محدّداً[٤].

أسباب الخطأ في التفكير

والآن لماذا نقع في أخطاء التفكير؟

أو ما أسباب أخطاء التفكير؟

إننا نقع في أخطاء مختلفة في تفكيرنا، لأن العقل محدود بطبيعته، ويتم تضليله بمعلومات خاطئة، أو غير دقيقة، أو معلومات خاطئة قَدمت وظهر أن غيرها أصحّ منها، أو تبين بطلان القديمة منها على التحقيق، وقد يرتكب العقل أخطاءه بسبب طريقة تحليله أو استنتاجه.

والتفكير قد ينتج رأياً صائباً أو خاطئاً، مثل الماء الذي ينتج أعشاباً نافعة وضارة في أحوال مختلفة.

إن الواقع يثبت أنّ العقل أوجد حلولاً ومخترعات بديعة، لكنه أوقعنا في مشاكل خطيرة، كالتلوّث الذي يهدد حياتنا على ظهر هذا الكوكب، ومخاطر أسلحة الدمار الشامل، ومخاطر سيطرة الذكاء الصناعي على حياتنا وخروجها عن سيطرة الإنسان! فالعقل ليس معصوماً عن الخطأ.

ومن المخاطر التي أوقعنا بها العقل البشري المنقطع عن تعاليم السماء، الانفتاح غير المنضبط على

(٤) يُنظر: روح التفلسف، د. حمّو النقاري.

الشهوات والغرائز، فالعقل لا يستقلّ بالمنهج الصحيح تاماً بعيداً عن توجيهات الدين السامية.

ومن أسباب أخطاء التفكير ضعف الإمكانات الذهنية، ومحدودية الخيال والذاكرة، وضعف القدرة على التحليل والتركيب، وتفاوتها بين البشر، وقد تكون المشكلة المعروضة أمام العقل أكبر من قدرة شخص ألمعي واحد، لأنها تحتاج فريقاً بعدة تخصصات.

إن ما سبق كله يمكن أنْ يتحسَّن كثيراً بحضور بعض البرامج والتدريبات، أو بقراءة مناهج التفكير وطرائقه وأخطائه وعيوبه قراءة متأنية، كما سنبيّن فيما يلي:

هل يمكن تقوية التفكير؟

من عادتنا نحن البشر ألّا نتوقف عن التفكير طوال اليوم[٥]، لكنه تفكير اعتيادي روتيني تلقائي، بسبب تكرار بعض الأعمال، فقد أعطى الله تعالى العقلَ قدراتٍ جبارة منها: تحويل المهام المتكررة إلى العقل اللاواعي، فحتى يرتاح العقل من التفكير المركّز يقوم بتحويل هذه الأعمال الروتينية إلى مهارة "لا شعورية"، حيث يعمل بها العقل الباطن أو اللاواعي، ولا يضطر العقل إلى التفكير والتركيز كلما أراد صاحبه القيام بهذه "الأعمال المتكررة"، مثل قيادة السيارة مع التدخين أو مضغ طعام ما، وكثير من المهارات الأخرى، فلا يفكّر بها الإنسان عند القيام بها لأنها متكررة، فالعقل يعمل بشكل تلقائي ك" ردة فعل " سريعة على الأعمال اليومية المتكررة.

أما التفكير المدروس والمركّز والمقصود والمراد في كلامنا، فهو "تفكير الفعل" أو "فعل التفكير" وليس تفكيرَ "ردّةِ الفعلِ" السريع والروتيني.

من المشاكل في موضوعنا رضانا عن مستوى تفكيرنا، وعدم شعورنا بالحاجة إلى تحسين هذا المستوى، حتى شاع في كلام أجدادنا أنه: "لمّا قسّم الله الأرزاق لم يرضَ أحدٌ، وعندما قسّم العقول رضي الجميع".

المشكلة أنّ الراضين عن مستوى تفكيرهم لا يطوّرونه، حتى أنظمتنا وطرائقنا التعليمية غالبها يعتمد مهارات التفكير المتدنية (التذكر والفهم والتطبيق) ولا تستهدف مهارات التفكير العليا (التحليل والتركيب والتقويم والإبداع)، بحسب "سُلّم بلوم" لمستويات التفكير، وقد أضاف (إدوارد دي بونو) مستوى الإبداع كمستوى سابع لمهارات التفكير.

---

(٥) حتى في ساعات النوم لا يتوقف مخ الإنسان عن العمل.

أذكر مرة عندما كنت مدرّساً جاءنا خبير تربوي وتفحّص العملية التربوية في كل مراحلها، وكان من ذلك أنه أمسك ورقة امتحانية وقلّبها بسرعة، ثم قال: أغلب الأسئلة تختبر ذاكرة الطالب لا مهارات تفكيره!!

وتعجبنا حينها من صنيعه، فهل استطاع قراءة الأسئلة بهذا التصفّح السريع للورقة الامتحانية؟! هل يسخر منا؟! وبعد فترة عرفنا السرّ، وهو أنه اكتفى بقراءة الكلمات الأولى من الأسئلة، ومن خلالها عرف أن أسئلتنا تركّز على المهارات الدنيا في التفكير، كما يظهر في الجدول التالي:

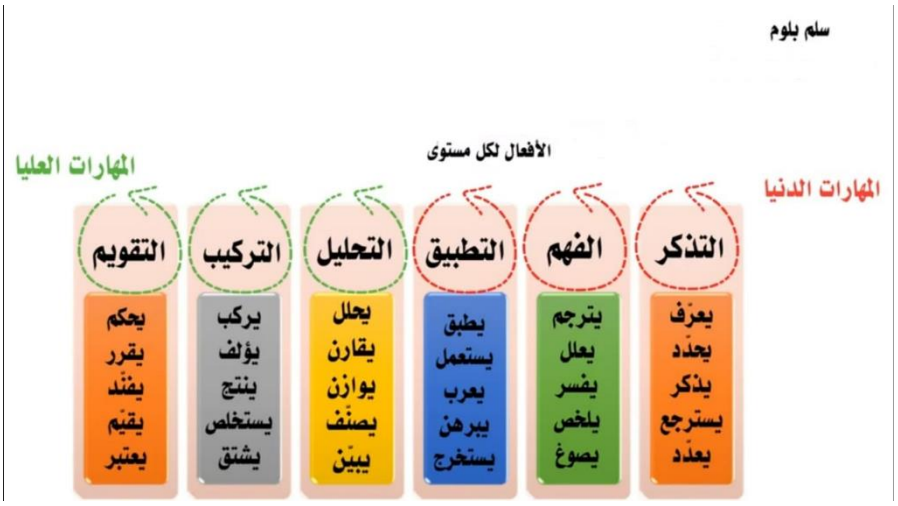

والحقيقة أنّ العقل يمكن أن نسميه (عضلة التفكير) إذا صحّ التعبير، وهو المسؤول عن إصدار القرارات، فمن المهم جداً العناية بمهارات التفكير وعيوبه وجوانب قوته وضعفه.

فالتفكير مهارة مثل أيّ مهارة، يمكن تطويرها ورفع كفاءة العقل فيها، كي لا نبقى أسرى الذكاء الوراثيّ، فالذكاء صحيح أنه فطري، لكنه ينمو بتعلم مهارات التفكير، مثل تعلم المهارات اللغوية والحسابية، فإنها تحسّن هذه المهارات وترقّيها.

يروى أنّ أبا حنيفة رحمه الله قال لأحد تلاميذه بعدما كبر وظهرت مخايل الذكاء والنجابة عليه، وقويت شخصيته وحُجته: (كنت بليداً فأخرجتك المواظبة).

فقد كانت حلقة أبي حنيفة رحمه الله كحلقة الفلاسفة الكبار، حيث يتمّ طرح مسألة فيها، ثم يقوم الجميع - الإمام وأصحابه - بمناقشتها حتى تنضج، ويصلوا إلى الآراء التي يستقرون عليها، وربما علت أصواتهم في أثناء النقاش والجدل، وحدث مرة أنْ مرّ أحد العلماء[٦] الذين لم يرقْهم هذا الجدل في بيت الله

(٦) هو الإمام المحدّث سفيان بن عيينة رحمه الله.

تعالى! كأنه يريد الطريقة التقليدية في التعليم؛ وهي تلقين الأستاذِ تلاميذَه آراءَه حتى يفهموها ويحفظوها..

فقال للإمام أبي حنيفة: هل يصلح هذا الجدل ورفْعُ الأصواتِ في المسجد؟

فقال له: (دعهم فإنهم لا يفقهون إلا بهذا)[٧] أي لا يتعلمون ويفهمون وتنمو مَلكة الفقه عندهم إلا بالنقاش.

مع الأسف نهتم بأجسادنا، وأرواحنا ونكدّس المعلومات في ذواكرنا، ونهمل مهارات عقولنا التفكيرية.

ينادي (إدوارد دي بونو) بجعل التفكير الإبداعي ثقافة مجتمعية و(بونو) هو الخبير العالمي بمهارات التفكير وطرق تنميته وتقويته وواضع مناهج (الكُوْرْتْ) في التفكير، وصاحب كتاب القبعات الست في التفكير، وأكبر المنادين بالتفكير الإبداعي ومن المؤسسين والمنظّرين له في العالم.

وإدراكاً لأهمية هذه القضية خصصت فنزويلا وزارة اسمها: (وزارة تنمية الذكاء) وتعليم طرق التفكير والإبداع.

وأصبحت الكثير من جامعاتنا -ولله الحمد- تدرّس مادة (مهارات التفكير) وحتى علماؤنا القدماء كانوا يدرّسون مادة المنطق لحماية التفكير من الوقوع في الأخطاء.

الاهتمام بتقوية عقولنا وتفكيرنا يُعد أولوية كبرى، لأنّ المؤمن القوي خير وأحبّ إلى الله من المؤمن الضعيف، ولأن التفكير فريضة إسلامية، كما سمّى العقاد رحمه الله أحد كتبه، واستخدام العقول بكفاءة ضرورة حياتية وفريضة وجودية لأمتنا.

فطاقات عقولنا تكاد تكون مشلولة تقريباً لانتشار فكر التقليد ومنطق الجمود، والنفور من النقد والإبداع.

كم نسمع هذه العبارات؟:

(هل أنت أفهم منهم؟!!)

(لو كان هذا الأمر ممكناً لفعله ألف شخص قبلك)

(حط رأسك بين الرؤوس وقل يا قطّاع الرؤوس)

---

(٧) ينظر: صحيح جامع بيان العلم وفضله لابن عبر البر، تحقيق أبو الأشبال الزهيري (٥٥٥/١).

(انظر ماذا يفعل الناس وافعل مثلهم)

(أنت تحبّ المخالفة..)

وقد أصبح الحال أفضل من السابق -ولله الحمد- فرُوْح القيمة الإضافية المميّزة والاجتهاد المعاصر والإضافة المعرفية أصبحت ظاهرة واضحة، لكننا دائماً ننشد الأفضل، لأنّ القرآن الكريم يدعونا دائماً إلى الأحسن قولاً وسماعاً واتباعاً وفعلاً وحواراً..

{وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ **أَحْسَنُ**}

{الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ **أَحْسَنَهُ**}

{لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ **أَحْسَنُ** عَمَلًا}

{وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ **أَحْسَنُ**}

وهذا لا يعني أننا سنصل إلى المثالية، فعقولنا في النهاية محدودة، كما أنّ مقدرات الإنسان محدودة أيضاً، لكن المطلوب تحسين الأوضاع، وتقليل الأخطاء، ففرق كبير بين أن تكون نسبة الصواب في أعمالنا وقراراتنا وجَودة تنفيذها ٣٠ % فقط، وبين أن تكون نسبة الوقوع في الخطأ ٧٠ %، وبين أن تبلغ جَودة أعمالنا وقراراتنا ٩٥٪، وأن تكون نسبة الأخطاء ٥٪، أو أقل أو أكثر بقليل.. هذا ما يميّز الشخص الناجح من الفاشل، وما يميز الشركة الناجحة من الفاشلة، والمجتمعات الراقية من المجتمعات المتخلّفة، والدولة المتقدمة من المتخلفة.

فالتفكير وما يولّده من أفكار ومخترعات وعلوم وتقنيات، أقوى موارد البشرية في عصرنا.

والآن دعونا نبدأ على بركة الله بذكر أخطاء التفكير وهو مقصود الكتاب.

(١) الخداع المنطقي

بداية ما هو المنطق؟

هو محاولة تقعيد التفكير وضبطه، عبر ضبط ثلاث عمليات عقلية رئيسة:

١-**المفاهيم المفردة**: دون نسبة شيء إليها إثباتاً أو نفياً، مثل: البرد - الثلج - الشمس – القمر - الطعام - الإنسان.. ويسمّيها المناطقة: " التصورات "، ويُعبّر عنها بالتعريفات، ويسمون التعريف (الحدّ) أي تعريف الشيء بصفات (جامعة مانعة) أي تجمع صفاته بحيث تمنع دخول غير المعرّف في التعريف، مثل تعريف الإنسان بـ: الحيوان الناطق. أي المفكّر.

٢-**تراكب المفردات:** الجمل، ويسميها المناطقة (القضايا) وهي تراكب المفاهيم بعلاقة بينها نفياً أو إثباتاً، مثل قولنا: (الأسد مفترسٌ – الأسد ليس ضاراً).

٣-**تراكب الجمل:** القياسات والاستنتاجات مثل قولنا: كل إنسان فانٍ (مقدمة أولى) وفلان إنسان (مقدمة ثانية) فلان فانٍ(نتيجة)[٨].

طبعاً لا يفوتنا أن نذكّر أن واضع هذا العلم هو أرسطو، لذلك يُنسب إليه، فيُقال: المنطق الأرسطي، وكان ابن سينا يسمّيه "خادم العلوم"، كما كان المعلم الثاني الفارابي يسمّي المنطق: "رئيس العلوم"، وأما الإمام الغزالي فقال عنه: "من لا علم له بالمنطق لا ثقة بعلومه" وألّف فيه عدة كتب مثل: (معيار العلم) (محك النظر) (القسطاس المستقيم) ونلاحظ أنّ الإمام الغزالي ابتعد عن اسم المنطق في عناوين كتبه، تجنّباً لبعض الجدل والاعتراض حول مشروعية هذا العلم[٩].

أما قولهم: (من تمنطق فقد تزندق) فسبب هذا القول أن الزنادقة كانوا لا يعترفون ولا يحتكمون إلا إلى المنطق، فلا يعترفون بالوحي السماوي، لذلك قال العلماء: من تمنطق فقد تزندق، أي بمعنى: اقتصر على المنطق الأرسطي فقط.

وقد أشار ابن خلدون في مقدمته إلى سبب آخر، وهو أنّ علم المنطق ينقض بعض الأدلة العقلية التي

---

(٨) ينظر: ضوابط المعرفة، وأصول الاستدلال والمناظرة، صياغة للمنطق وأصول البحث متمشية مع الفكر الإسلامي، عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني.

(٩) ينظر: أسس الفلسفة، د. توفيق الطويل، ص٣٤٢

يحتجّ بها المتكلمون على إثبات العقائد الإيمانية، ولكنه لا ينقض أدلتهم كلها، فبطلال الدليل لا يعني بطلان المدلول، لوجود أدلة أخرى كثيرة على إثبات العقائد الإيمانية، ومن هذه الأدلة ما هو مأخوذٌ من علم المنطق نفسه![١٠].

يقول صاحب السُّلَم المُنَوْرَق في علم المنطق:

والخُلْف في جواز الاشتغال *** به على ثلاثةٍ أقوال
فابنُ الصلاح والنواوي حرّما *** وقال قومٌ ينبغي أن يُعلما
والقولة المشهورةُ الصحيحة *** جوازهُ لكاملِ القريحة
ممارس السنّة والكتابِ *** ليهتدي به إلى الصوابِ

وسنعود لذكر القول الذي نرتضيه إن شاء الله، بعد استعراض فوائد تعلم هذا العلم، ونجيب عن سؤال؛ لماذا المنطق عقيم؟

أولا: فوائد تعلّم المنطق:

لتعلم هذا العلم فوائد كثيرة، أهمها:

١-معرفة المصطلحات المنطقية: لأن كتبنا محشوةٌ بهذه المصطلحات، فمن قرأ عبارة وفيها مصطلح منطقي؛ لا يكتمل له الفهم حتى يفهم ما المقصود بهذا اللفظ.

٢-تعلُّم المنطق يُكسبنا لغة التعبير عن هذه المعاني، ويزوّدنا بقواعد لهذه العمليات العقلية والموضوعات المجرّدة.

٣ -لا شك أنّ للمنطق قواعد تفيد عند الاحتكام إليها في ضبط التفكير، وهناك فرق بين من يدرس قواعد التفكير ويتدرّب عليها، وبين من لم يدرسها أصلاً، فكل علم يُكسب العقلَ آلياتِ تفكير ولغةً ومهارةً، فكل مهارة أو علم أو مهنة هي بالنسبة إلى الإنسان كعقل رافدٍ يُضاف إلى عقله - كما يذكر ابن خلدون - فكيف بعلم مختصّ في ضبط آليات التفكير؟!

٤- المنطق يساعد في تحليل الكلام وتشريحه، ويُظهر المقدمات المطوية،

ولنأخذ مثالاً توضيحياً:

(١٠) ينظر: مقدمة ابن خلدون الفصل ٢٣ ، من الباب السادس، تحت عنوان: علم المنطلق.

يقول أحدهم: (علينا البحث في التراث لإيجاد حلول لمشاكلنا).

لو حللنا هذه العبارة سنجد أنّ فيها مقدمات مطوية:

المقدمة الأولى: التراث عالج المشكلات كلّها.

المقدمة الثانية: هذه (المشكلة المعاصرة) إحدى المشكلات.

النتيجة: علاجها موجود في التراث..

فنصل إلى النتيجة المذكورة: علينا البحث في التراث لإيجاد حلول لمشكلاتنا.

ومن خلال علم المنطق نتمكن من تحليل النتائج وكشف المقدمات المطوية في نقاش ما، والحكم عليها مفردة بالصواب أو الغلط.

ثانيا: لماذا المنطق عقيم؟

يذكر كثير من الباحثين أنّ من أسباب انطلاق الغربيين وتقدمهم، تجاوز المنطق الأرسطي الصوري،

وإن فكرة عُقم المنطق الأرسطي، سمعناها بكثرة وبتعبيرات مختلفة، ولكن بصراحة: لم أكن أدرك سبب هذا الحكم، وأنا ممن درس علوم الشريعة والآلة، ومنها علم المنطق الذي يعتبره علماؤنا من علوم الآلة الضرورية، مثل علم النحو والبلاغة والصرف. وبعد البحث ظهرت لي جوانب عُقم علم المنطق، ومن المفيد الوقوف عليها هنا، ويمكن أن أُجملها بما يلي:

١-المنطق يهمل الو اقع:

في القرنين الرابع والخامس الميلاديَين ترجمت كتب المنطق والفلسفة وعلومها والنظريات اليونانية إلى اللغة اللاتينية فتبنتها الكنيسة، وتعصّب لها الأوربيون، واعتبرت الكنيسة كل من يخالف هذه النظريات والعلوم مهرطقاً يخالف تعاليم الكنيسة، وبناء عليه ظهرت أحقاب متلاحقة من قمع العلماء والمفكرين في أوربا عبر محاكم التفتيش التي تتبع الكنيسة، إلى أن تمّ أخيراً تجاوز الكنيسة وتعاليمَها وانطلقت أوربا تشقّ طريقها، وقد كان من ضمن ما تم تجاوزه في أوربا حينها المنطق الأرسطي.

لقد كان سبب تقدم المسلمين أولاً في عصور الازدهار، ثم الأوربيين في العصر الحديث، اتباع منهج الاستقراء الواقعي، واعتماد المشاهدات لاكتشاف قوانين الطبيعة، والمنهج التجريبي للإبداع والاختراع، للاستفادة منها وتسخيرها.

أما المنطق الصوري فيعكف على الفكر المجرّد العقلي، ويهمل الواقع والتجريب الخارجي. لذلك اسمه (منطق صُوري) فهو يهتم بصحة صورة القياس الخارجية، ولا يمتحن صدق المقدمات وصحتها في الواقع، فغايته تناسق الفكر مع نفسه، وليس مطابقة المقدمات أو النتائج للواقع(١١).

وأخطر شيء فيمن تعمَّق في المنطق وتعلق به، أنه قد يغتر بنفسه، فيتكلم بلغة تدعي أعلى درجات الموثوقية والصحة، حيث يضبط شكل كلامه منطقياً! في حين قد يكون مخالفاً للواقع من حيث يدري أو لا يدري!

ويوضّح فرنسيس بيكون هذه المسألة بمثال معبّر، حيث يفرّق بين ثلاث طرق يشتغل وفقها الفكر العلمي بصفة عامة، هي العنكبوت والنمل والنحل.

ويعتبر عمل النحل متفوقاً من الناحية المنهجية على عملَيْ النمل والعنكبوت، ويسوّغ ذلك بتأكيده على أنّ طريقة العنكبوت في العمل هي استخلاص كل شيء من العمق الخاص بها، فتحيط نفسها بنسيج داخلي فقط (بيت العنكبوت) ويشير بهذا لمن يعتمد على عقله فقط، دون استفادة من الواقع والتجربة والمشاهدة.

أما طريقة النملة فتميل إلى التجريبية فقط، بما أنها ترضى بتكديس ما تعثر عليه هنا وهناك، فهي تعتمد على الخارج فقط، وتهمل العمل العقلي (الداخلي).

غير أن طريقة النحلة هي الطريقة العليا والأكثر نجاعة، كونها تصنع العسل داخلياً، من الأشياء التي تجدها في الخارج، فتقوم بتأليف بارع بين الطريقتين (الداخلية والخارجية) فهي تجمع بين المنهج التجريبي الواقعي والعمل العقلي لتصل إلى الإبداع(١٢).

٢-المنطق عقيم:

عقيم لأنه لا ينتج معرفة جديدة، المقدمة الكبرى (الأولى) تشتمل على النتيجة، فعندما نقول:

(كل إنسان سيموت)، "مقدمة كبرى"

(خالد إنسان)، "مقدمة صغرى"

---

(١١) ينظر: أسس الفلسفة، د. توفيق الطويل، ص٣٣٦

(١٢) ينظر مقال: المنطق الجديد عند فرنسيس بيكون، د زهير الخويلدي.

(خالد سيموت)، "نتيجة"

فالنتيجة وهي (خالد سيموت) متضمَّنة في المقدمة الأولى، وهي: (كل إنسان سيموت) فلا جديد في النتيجة!

٣- القياس المنطقي ضيق:

القياس المنطقي يضبط المقدمات باثنتين، بينما المقدمات قد تكون أكثر، يعتمد المنطق مبدأ: بما أن الأمر كذا فالنتيجة كذا، بينما الواقع؛ بما أن الأمر كذا وكذا وكذا وكذا، فالنتيجة كذا وكذا وكذا.

فالمنطق بهذا الشكل يكرّس العقلية ذات البعد الواحد، بينما كثير من مشكلاتنا أسبابها متعددة ،وحلولها مركبة كذلك.

٤-القياس فيه (دَوْر):

القياس توقف الحجة على شيء يحتاج دليلاً كذلك، مثل المقدمة الكبرى دليلها الاستقراء، ومن مفردات الاستقراء المقدمة الصغرى والنتيجة، فتوقف الوثوق بالمقدمة الكبرى على صدق المقدمة الصغرى والنتيجة!!

مثلاً: (كل إنسان سيموت) قاعدة تم اكتشافها عبر استقراء أفراد البشر الذين ماتوا،

وهي نفسها مستند إثباتنا الموت "الموت لخالد" في القياس السابق.

٥-قد تكون المقدمة الكبرى كقولنا (كل إنسان ذكي) خطأ أصلاً ونحن نبني عليها نتائج، مثل: (كل إنسان ذكي، وأنت إنسان، فأنت ذكي).

والصواب: تقريباً كل إنسان عنده نوع من ذكاء... إلخ.

ومثل قول أحدهم: (أنا أحسنتُ لسعيد)، فيقال له: (اتقِ شرّ من أحسنت إليه)، فالقياس هنا: (أنا أحسنت لسعيد، وكل من تحسن إليه يضرك فاحذره، إذاً: احذر فلاناً لأنه سيحاول ضرك). الخطأ هو أنّ العكس هو القاعدة العامة التي عبّر عنها الشاعر بقوله:

أحسنْ إلى الناسِ تستعبدْ قلوبَهمُ = فلطالما استعبدَ الإنسانَ إحسانُ

إن حالات الإساءة شاذة، فلا نجعل الاستثناء قاعدة، وننسف القاعدة الأصل[١٣].

فمن المهم جداً أن ننظر في المقدمة الأولى: هل هي صحيحة؟ وهل نتيجتها حتمية؟ وهل نتيجتها هذه حصرية؟ أم يمكن توليد عدة نتائج أخرى؟ وهل هذه المقدمة هي الوحيدة التي تؤدي لهذه النتيجة؟

(بما أنّ) النظام الدولي لا يسمح لنا بالتحرر، (فإنّ) علينا أن نذعن، ولا نثور في وجه الطغاة..

فكثيراً ما تكون الجملة أو مجموع الجمل الأولى خاطئة بعد (بما أنّ..) وبالتالي من العبث مناقشة النتيجة بعد (فإنّ)، وعلينا عدم التسليم بالمقدمات التي انطلق منها، وإلا سيُلزمنا بالنتائج الخاطئة التي بناها على تلك المقدمات الخاطئة..

خاتمة:

الموقف الوسطي الصحيح أنه علم مفيد ويساعد على ضبط كثير من أمور (التعريفات والجمل والقياسات والحجج) فقد أوجد لغة ومصطلحات متداولة لضبط هذه المعاني.

لكنه لا يعصم العقل، وليس المقياس الوحيد، فلسنا مع من يقول: ليس له فائدة، بل هو ضار، ولسنا مع من يقول: يعصم التفكير من الخطأ.

فلا يجوز أن نقتصر على تعلّمه، بل هناك علوم أخرى لمهارات التفكير المنطقي والعلمي وغيره[١٤].. ولو كان علماؤنا القدماء بيننا لدرسوها ودرّسوها والله أعلم.

أما قولهم: (إنّ الفكر السليم يصل إلى النتائج السليمة دون حاجة إلى المنطق)، فنقول هذا صحيح، لكن موافقة هذه النتائج وضبط المقدمات والآليات بقواعد علم المنطق يساعد على كشف الأخطاء إن وُجدت، فكون العقل استقل بالنتائج والمحاكمات الصحيحة لا يعني عدم فائدة هذا العلم.

فيرى ابن سينا أنّ الفطرة إذا أصابت كانت كَرَمْيَةٍ من غير رامٍ، والقول بالاقتصار على الفطرة يفضي إلى إلغاء العلم والصناعات، والدليل على أنها لا تكفي، تعدّدُ المذاهب، واختلاف الناس فيما بينهم ومناقضة الإنسان نفسه.

وقد ردَّ الفارابي على من يقول:

---

(١٣) سنتكلم عن هذا عند الحديث عن التعميم والتفكير الاستثنائي.

(١٤) تم وضع علوم مثل مهارات التفكير والتفكير الناقد والتفكير الموضوعي والعلمي والإبداعي والمغالطات المنطقية والمنطق العلمي (البراغماتي)، والمنطق الرياضي والمنطق الاستقرائي والمنطق الرمزي.. ولم يعد الأمر محصوراً بالمنطق الأرسطي.

- إنّ التدرّب على الكلام والجدل يغني عن المنطق.

فقال: إنّ من يقول ذلك كمن يزعم أن التدرّب على استظهار الأشعار والخطب والإكثار من روايتها، يغني في تقويم اللسان عن معرفة قوانين النحو والإعراب[١٥].

ونقول: نعم يمكن أن يستقيم اللسان من غير تعلّم النحو والإعراب عند نوادر الناس في زماننا، لكن لا يأمن ذلك الإنسان من اللحن والخطأ، بل لا يعرف كيف يميّز بين الخطأ والصواب، ولا يستطيع الجزم بذلك، أو إلزام الطرف الثاني.

لذلك قال صاحب السلم المُنَوْرَق:

وبعد: فالمنطقُ للجَنان .. نسبتُه كالنحو للّسان[١٦].

(١٥) ينظر: أسس الفلسفة، د. توفيق الطويل، ص٣٥١

(١٦) الجَنان هو العقل.

(٢) التفكير التقديسيّ

ويمكن البداية بسؤال: هل يعصم الدينُ التفكيرَ؟

لا شك أنّ الدين يرشد الإنسان، ويحمي العقل من الضلال والانحراف، ويعطي للعقل مؤشرات تكون له بوصلة في الحياة، في عالمي الغيب والشهادة.

ولا شك أن الدين يجيب عن الأسئلة الوجودية الثلاثة (من أين؟ وإلى أين؟ ولماذا؟)فهذه الأسئلة تحتاج يقيناً حتى يرتاح العقل من الرجم بالغيب بلا علم مشهود أو خبر صادق، قال الله تعالى: {وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ؟ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ (١٩) وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ، مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ، إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ (٢٠) أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ (٢١) بَلْ قَالُوا: إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ، وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ (٢٢)} [الزخرف: ١٩ - ٢٢].

اليوم نرى أين وصلت الفلسفات العقلية المنبتّة والمنقطعة عن السماء، سواء من الفلسفات المادية أو العدمية والعبثية والعنصرية، التي أهدرت الإنسان، وحوّلته إلى حيوان شهواني أناني مفترِس.

فنحن المؤمنين نعتقد أنّ ديننا مقدّس معصوم ولا شك، وأن الملتزم به يفلح في دنياه وآخرته.. لكن كثيرين لا ينتهون إلى أنّ هناك جانباً بشريّاً في فهم الدين وتطبيقه، وهو الذي يحدد شكل تديننا.

نعم الدين يحدّد لنا قواعد:

١- تنظم علاقة الخلق مع الخالق تصوّراً وعبادة وطاعة.

٢- ينظّم علاقاتنا وتعاملاتنا البينية بما يضمن مصالح الجميع حالاً ومآلاً.

٣-ويحدّد لنا ضوابط تعاملنا مع بقية المخلوقات.

لكن فهم الدين وتفسيره وتنزيله على الواقع يتعلق بالبشر، ويختلف باختلافهم، فليس كل ما نقول إنه دين هو دين منزّل من عند الله تعالى بالضرورة، فتدخّل العقل البشري في اختيار الدين وفهمه وتطبيقه واضح لا ينكره أحد، فبالعقل البشري عرفنا الله تعالى، وصِدق رسوله ﷺ، وصدق كتابه الكريم، ومنهج التوثّق من أحاديث النبي ﷺ، وقواعد فهم نصوص الكتاب والسنة، والقواعد العقلية الأخرى التي نرجع إليها عند عدم نص الكتاب أو السنة على الحكم، ثم تنزيل هذا الفهم على الواقع، فهذه الخطوات كلها عقلية بشرية اجتهادية.

بل كثيراً ما تُنسب إلى الدين آراء خاطئة أو ضعيفة مرجوحة، وأحياناً أقوال قيلت في سياقات وظروف مختلفة، ويريدون تطبيقها في سياقات وواقع مختلف تماماً، بل أحياناً يتم تسويق خرافات باسم الدين، والدين بريء من هذه الخرافات!!

إن كل ما سبق يستدعي أن نفرّق بين الدين من حيث جوهره وبين تديننا به، وطريقة فهمنا له.

وهنا من الجيد تسليط الضوء على بعض النقاط لنوضّح مناطق الالتباس بين (الدين والتديّن) بين الجانب الإلهي المعصوم وبين الجانب البشري الظنّي الذي قد يصيب وقد يخطئ.

١-اختيار الدين أو المذهب:

إن اختيار الإنسان لدينه أو لمذهب ما ضمن دين واحد، هو اختيار بشريٌّ اجتهادي، بل كثيراً ما يكون تقليداً للمجتمع الذي ينشأ فيه المرء.

٢-الخلط بين الثابت بيقين وظني الثبوت:

هناك خلط بين النص القطعي الثبوت، وهو القرآن الكريم والسنة المتواترة، وبين النصوص ظنية الثبوت، كبعض الأحاديث، التي يختلف في تصحيحها وتضعيفها العلماء المحدّثون المختصون.

٣-الخلط بين النص المقدس وتفسيره الاجتهادي:

وثمة خلط آخر يقع فيه كثير من الناس، وهو الخلط بين النص المقدّس وبين فهم النص وتفسيره والاجتهاد فيه، ككثير من تفاسير القرآن الكريم وشروح السنة النبوية، وما استنبط منهما من الأقوال الفقهية الاجتهادية، فالنصّ المقدّس الصحيحُ معصومٌ، والفهوم والاجتهادات البشرية تصيب وتخطئ، كما أنّ ثمة أقوالاً أخرى قد تكون أصح.

٤- الخلط بين التفسير والتنزيل:

كما يقع الخلط أيضاً بين الاجتهاد، أي تفسير النص، وبين تنزيل هذا الفهم أو الحكم على الواقع.

قد يكون الفهم صحيحاً في ذاته، ولكن يقع خطأ في توقيت التطبيق وظروفه، في حين أن للإسلام في هذه الحادثة بهذا التوقيت حكماً آخر، أو ثمة اجتهاد أقرب إلى مراد الشرع، وقد نربط بين حكم وبين واقعة لا يناسبها هذا الحكم، وهو ما يسميه الفقهاء (التكييف الفقهي) فنحكم على عقد -مثلاً- أنه عقد إيجار، ونجري عليه أحكام الإجارة فقط، وهو بالحقيقة عقد مركّب من عدة عقود فيه (إيجار وبيع وإعارة وهبة)

مثل الاستئجار في بعض الفنادق، فالخدمات المقدّمة مركّبة بين العقود السالفة كلّها.

أو الحكم على عقد بأنه شركة جائزة، والصواب أنّ فيه رِباً محرماً، فنوقع الناسَ بالحرام وهم لا يدرون! أو العكس، وذلك بالحكم على عقد أنّ فيه رِباً محرماً، والصواب أنه خالٍ من الربا، فيقع الناس في الحرج والمشقة!

٥-الخلط بين الدين وعلماء الدين، أو بين التقدير والتقديس:

فكثيراً ما ينقلب تقدير العلماء والصالحين إلى تقديس لاجتهاداتهم الدينية، بل حتى الدنيوية التي قالوها في غير تخصصهم. وبين التقدير والتقديس فرق كبير؛ فالتقدير يكون لصاحب العلم والصلاح، لكن مع اعتقادنا بأنه بشر يصيب ويخطئ، وأما التقديس فللوحي المعصوم.

كما أنه ليس هناك تلازم بين تديّن الشخص وإخلاصه وصلاحه وبين صواب رأيه! فإذا كان المرء صالحاً ومخلِصاً فإن ذلك لا يعني أنه معصوم في آرائه وقراراته ومواقفه وأفكاره، فقد يخطئ الصالح في تقدير الأمور، ورأيه ليس وحياً معصوماً.

٦- الخلط بين الدين والمتدينين:

أو الخلط بين الإسلام والمسلمين، حيث يتم الخلط بين تعاليم الدين السامية، وسلوك المتدينين، أي بين تعاليم الدين المثالية وبين سلوك المتدينين كبشر؛ يصيبون ويخطئون، وقد يخالفون تعاليم الدين نفسه.

نعم يمكن نقاش السلوك مطولاً، إذا كان نابعاً من فهم الدين، كسلوك بعض المتشددين والغلاة والتكفيريين، لكن من الخطأ محاكمة الدين بناء على سلوك أتباعه.

وهنا تأتي مغالطة من ينقد بعض انحرافات المحجبات والمصلين والشيوخ والحجاج وعلماء الدين أو الدعاة، ويسحبون ذلك على الدين نفسِه.

٧-مبادئ الدين وإجراءاته:

في الدين قيم ومبادئ وأحكام، وهناك آليات وإجراءات ووسائل لتفعيل تلك القيم والمبادئ والأحكام، فتفعيلها كثيراً ما يستدعي إيجاد آليات ووسائل ومؤسسات وأنظمة وأدوات، وذلك كله جهد واجتهاد وعمل بشري، ويقع بعض الناس في الخلط بين تعاليم الدين ذاته، وبين الوسائل المتغيرة الخاضعة للظروف والزمان والمكان.

مثل وجوب إقامة العدل بين الناس، هذه قيمة وحكم عام مهم جداً، بل يعدّ من أهمّ مقاصد نزول الأديان {لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ} [الحديد: ٢٥]، فإقامة العدل بين الناس يحتاج محاكم وقوانين وقضاة ومؤسسات شرطة وضبطاً.. فكل ما يتبع وزارة العدل في كل العصور، وفي كل الدول العالم، هو من آليات ووسائل إقامة العدل بين الناس، وهو جهد بشري كما لا يخفى، ومثله تفعيل الشورى في أنظمة الحكم.

٨-بين وظيفة الدين ووظيفة الإنسان:

إن عمارة الأرض جهد بشري (أنتم أعلم بشؤون دنياكم)، والدين ينظم سيرنا في الأرض، ولكن ليس من وظيفته أن يفصل لنا جزئيات العلوم وأحوال عوارض الدنيا، وهذا الموضوع يحتاج بياناً شافياً ليس هذا موضعه، وقد نشرت فيه بحثاً أحسب أنني وضحت فيه الأمر وجلّيته إن شاء الله.

وبذلك يظهر لنا أنه ليست كل فكرة يدّعي صاحبها أنها من الدين وبالتالي إنها معصومة، هي فعلاً كذلك.

أسأل الله أن يرينا الحق حقاً ويرزقنا اتباعه، ويرينا الباطل باطلاً ويرزقنا اجتنابه.

(٣) خداع البلاغة والبيان

إذا أحسن القائل في عرض فكرته الخاطئة، فكان بارعاً في فن الإلقاء ولغة الجسد والكاريزما والانفعال والخطاب العاطفي والإقناع، أو صاغ عبارته صياغة أدبية بليغة، أو نظمها شعراً منمّقاً... تمكن ببلاغته وفصاحته هذه من خداع كثير من الناس.

لذلك يروى أنّ أرسطو وضع قواعد المنطق بعدما رأى انتشار الانخداع بالخطباء.

وقد أشار النبي صلى الله عليه وسلم إلى هذا حينما قال: ((إنّ من البيان لسحراً))[١٧].

يذكر المنفلوطي رحمه الله قصة خُطبتين غيّرتا موقف شعب رأساً على عقب، من هتاف لبروتس قاتل (يوليوس قيصر)، إلى ثورة عارمة تطالب بقتله وحرق بيته، قال في بداية مقاله المعنون (سحر البيان):

"رأيت في إحدى روايات شكسبير وهي الرواية المعروفة برواية "يوليوس قيصر" موقفاً لبطلين من أبطال الفصاحة، وفارسين من فرسان البيان، قد وقف كل منهما من صاحبه موقف اللاعب من اللاعب، ووقف الشعب الروماني بينهما موقف الكرة بين مضارب الأقدام؛ تعلو بها حيناً وتسفل أحياناً؛ فلا تثبت صاعدة ولا تستقر هابطة، فعلمت أنّ العامة عامة في كل عصر، والشعب شعب في كل مصر، وأن سواد الأمة تحت صرح فرعون مثله تحت عرش قيصر، وأنه في رأس التاريخ اليسوعيّ مثله في ذنب التاريخ المحمديّ، تدنو به كلمة، وتنأى به أخرى، وتجذبه دمعة وتدفعه ابتسامة، وتطير بلبّه الشِّعريات والخيالات طيران الريح الهوجاء بذرات الهباء"[١٨].

أنصح القارئ الكريم بالبحث عن هذا المقال وقراءته على شبكة المعلومات فهو من روائع الأدب العالمي.

يقول على لسان أحدهم في ختام نقل خُطبتَي (بروتس) قاتل قيصر ،و(أنطونيوس) المطالب بالثأر من قاتل قيصر:

"سنحرق منزل بروتس ومنازل رفاقه!" فخرج الشعب يتدفق في شوارع روما تدفق الأمواج الثائرة..

أنطونيوس "في موقفه وحده": أيتها الفتنة العمياء، قد أيقظتك من مرقدك فارفعي رأسَك وامضي في سبيلك، واشتعلي، حتى يحرق لسانك أديم السماء، وحتى لا تبقي على شيء مما حواليك. ا. هـ

---

(١٧) صحيح البخاري

(١٨) النظرات، مصطفى لطفي المنفلوطي.

وهكذا استطاع أنطونيوس في موقف واحد أن يستعبد الشعب الروماني لنفسه، وما كاد يخلص من استعباد قيصر، وهكذا الأمم الضعيفة لا مفرّ لها من العبودية لحملة التيجان، أو حملة البيان".

(٤) الوثوقية الزائدة

لا شك أنّ العقائد بالنسبة إلى صاحبها ثوابت لا تحتمل الشك، ولا يمكن عدم الوثوق بها، وإلا تحوّلت إلى مجرد أفكار قابلة للتصديق والتكذيب، ولا تبقى عقائد.

إن الأفكار تتحول إلى عقائد بعد أن يتم التدليل عليها، والتوثق منها، ولكن هذا لا يعني أن تصبح كلُّ أفكارنا عقائد! فالظنيات - حتى داخل الإسلام - دائرتها أوسع من القطعيات، لذلك كان الإمام الشافعي رحمه الله يقول: "مذهبنا صواب يحتمل الخطأ، ومذهب غيرنا خطأ يحتمل الصواب".

والناس عادة لا تنتبه لقوله (يحتمل الخطأ ويحتمل الصواب)، إن هذه الاحتمالية تنقل الاجتهاد من دائرة اليقين إلى دائرة الظن! وهو -أقصد الظن- على درجات[١٩].

حتى في بقية أفكارنا نحن بحاجة إلى مقدار من المعلومات التي نثق بها، حتى نستطيع الحركة والانطلاق في هذه الحياة، حتى لا نكون شكاكين ولا أدريين! لكن المشكلة بتحويل هذه الأفكار الظنية إلى عقائد، والظنيات إلى قطعيات، لا تقبل الشك أو النقد أو التطوير.

طبعاً كلامنا ليس في العلوم التطبيقية، فالوثوقية هناك مقدارها أكبر، وإنما هو في القضايا الإنسانية والاجتماعية والإصلاحية والاجتهادية.

حياة الأفكار بتطورها وتجديدها، ولا يمكن ذلك لو وضعناها ضمن سياج من الوثوقية، فلا بد من إحاطتها بهامش من الاحتمالات، وتطويرها بحسب الخبرات والتجارب والبحوث الجديدة.

فالأفكار الإصلاحية وتحليل الواقع والنظام الدولي؛ ما هي إلا محاولة فهم الواقع والحقيقة، أما امتلاك الحقيقة الكاملة فذلك ليس إلا لله تعالى، لذلك نستفيد من تعدّد وجهات النظر، ونوسّع قاعدة الفهم في القضايا الإنسانية والاجتماعية والإصلاحية.

إن الجزم في الظنيات مثل الشك في العقائد؛ كلاهما مذموم، مثل المتقدّم على الخط والمتأخر عنه، كلاهما يؤدي لاختلال الصف واعوجاجه.

---

(١٩) كما سيمر معنا عند الحديث عن (الوثوقية ومراتب العِلم).

(٥) العقلية الوثوقية ومراتب العلم

من الضروري امتلاك عقلية ناقدة وعدم التعجل في الحكم على المعلومات الجديدة قبولاً أو رداً، فمن الجيد التمهل قبل الحكم على المعلومات الجديدة، حتى نصل إلى حكم نطمئن إليه، طالما أنّ هناك نقصاً في الأدلة، فطبيعة العقلية العلمية الجادة النفور من الاعتقاد الجازم في المعلومات التي لم تصل لليقين فعلاً.

وهذا جزء مما يسمى (الشك المنهجي)، الذي يشك بكل معرفة سائدة حتى يحصل على برهانها ودليلها، فهو شك للوصول إلى المعرفة المبرهَنة، كما أن الوثوقية العالية بالمعلومات تجعل صاحبَها متصلّب العقل، متشبّثا بآرائه، فاقداً للمرونة الذهنية والنفسية.

طبعاً ليس مطلوباً منّا أنْ نعرف كلّ شيء ونتأكّد منه دفعة واحدة. فالحياة رحلة في طلب المعرفة، وأيّ عالِم مهما علا كعبه في العلم؛ لا يحيط بكل شيء، قال الله تعالى: {نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ} [يوسف: ٧٦].

والإنسان يموت وفي نفسه شك من مسائل كثيرة لم يصل فيها إلى جواب شافٍ، بخاصة إذا امتلك عقلاً متسائلاً باحثاً عن الحقّ يمحّص ويدقّق.

وهنا ينبغي أن نميّز بين مراتب الوثوق بالمعرفة وأن نحرص على عرض المعلومة مع بيان مرتبة علمنا بها، وعدم عرض كل معلوماتنا بدرجة واحدة من الوثوقية، كأنها كلها حقائق لا تقبل نقداً ولا مراجعة!!

مراتب الوثوق بالمعرفة:

للمعرفة وما يقابلها أربع مراتب هي:

١- العلم اليقيني ١٠٠٪ ٢- العلم الظني ٥١-٩٩٪

٣- الشك ٥٠٪ ٤- الوهم أقل من ٥٠ %

٥- الجهل ٠٪

فهنا أربع مراتب للعلم إذا أبعدنا الجهل، لكونه عدم العلم.

المرتبة الأولى: مرتبة اليقين:

هذه المرتبة هي التي يصل فيها علمك بالشيء إلى درجة لا يداخلك فيها أي شك بتاتاً، كأنْ ترى ابنك

أمامك في البيت فتقول: أحمد في البيت الآن، وأنت تراه أمامك، فهذا يعتبر علم يقين لا يداخل الإنسان فيه أيّ شك.

المرتبة الثانية: الظن:

أن يكون وثوقك بالمعلومة ما بين (٥١ %) إلى (٩٩ %)، ونلاحظ أن الظن درجات بعضها أقرب إلى الشك وبعضها أقرب إلى اليقين.. ونعبر عن معلومات هذه الرتبة عادة بقولنا: (أظن أن المعلومة كذا، وغالباً، ويغلب على ظني، يترجّح عندي، أعتقد كذا، بحسب علمي كذا).. وكلها كلمات تدل على غلبة الظن، وهي كما يتضح متفاوتة في الدرجات، لذلك من المفيد ذكر النسبة المئوية لدرجة وثوقك بالمعلومة، كأن تقول: ٧٠٪ الأمر عندي كذا، لأن هذه الوثوقية غير ٩٩٪ كما هو واضح.

مثال ذلك: تركت ولدي أحمد في البيت، وقبل أن أخرج سألتُه: هل ستخرج يا ولدي؟ فقال: لا. ثم سألني سائل بعدما خرجتُ من البيت بنصف ساعة أو ربع ساعة، وقال لي: هل أحمد في البيت؟

ماذا يكون جوابي؟ وأنا أجزم أن أحمد في البيت؛ وفي الوقت ذاته ثمة احتمال لخروجه بعد ذهابي، وإن كان الاحتمال ضئيلاً؟ أقول: غالب ظني أنه موجود في البيت. وأقصد بذلك: غلبة العلم بوجوده في البيت، مع وجود احتمال أنه غير موجود فيه، أو أنه خرج بعد خروجي لضرورة... هذه يسمونها: مرتبة الظن الراجح، أو غالب الظن، وهو مراتب كما ذكرنا.

والجدير بالذكر أن الظن هنا غير الظن المذموم في القرآن الكريم كما سنبين بعد قليل.

المرتبة الثالثة: الشك:

وهي (٥٠ %)، فيكون علمك بالشيء إثباتاً ونفياً بمرتبة واحدة، كما لو سألك سائل: هل زيد في مكتبه؟ وأنت لا تدري أهو في مكتبه أم لا، فتقول: يمكن أن يكون موجوداً ويمكن ألا يكون موجوداً.

هذا يسمونه: الشك، أي: يحتمل أنه موجود ويحتمل أنه غير موجود.

المرتبة الرابعة: الوهم:

تبدأ من (١ %) إلى (٤٩ %) وهنا نلاحظ أنه درجات متفاوتة أيضا، بعضها يقترب من الشك والظن، وبعضها يقترب من الجهل، فالعلم المرجوح يسمى: وهماً[٢٠].

(٢٠) هذا ما يعبّر عنه القرآن الكريم بالظن وهو عكس غلبة الظن الذي مر معنا منذ قليل، حتى إنّ بعض الفضلاء لم ينتبه لاختلاف

العقلية العلمية ينبغي أن تميّز بين درجات الوثوق بالمعلومات، وقيمة الآراء التي تُقال أمامها. وهذا ما ينبغي للإنسان العاقل، كما ينبغي أن نميز بين المعلومة والتحليل الشخصي، وبين المعلومات التي نخزنها في رؤوسنا، والتي نرويها للناس، ولا نساوي في درجة الوثوقية بين كل الدرجات عند تخزين المعلومات في عقولنا أو عند روايتها.

فعند التخزين نضع كل معلومة وبجوارها درجة الوثوق بها، بالدرجة المئوية كما مرّ معنا، ولا نساوي بينها، وسأضرب أمثلة توضيحية لعبارات توحي بدرجة الوثوق قوةً أو ضعفاً، فبالمثال يتضح المقال:

نقول: يغلب على ظني كذا.. أو يخطر ببالي كذا، أو عندي فكرة لم أتأكد منها بعد، وعندي نواة فكرة لم تنضج بعد، أو عندي تحليل لم يتبلور عندي بعد، أو إلى الآن اعتقادي في هذا الأمر كذا.. فهذه العبارات أنت فتحت الباب للنقاش والإنضاج والبلورة.

وعند تثبيت المعلومات والتأكد من موثوقيتها نقول: أصبحت عندي قناعة عميقة بكذا وكذا، أو بعد بحث طويل ودراسة عميقة توصلت لما يلي، أو هذه معلومات يقينية في الوسط العلمي، أو يتعامل معها المختصون على أنها مسلّمات.

ويمكن التعبير عن القناعة التامة بتعبيرات مثل: هذا الأمر لم يعد يُناقش، أو لا يُشكك به في الوسط العلمي، أو بين المختصين. أو أنا متيقن أو متأكد أو واثق... ونحوها من عبارات التوثيق والتصديق والتأكيد.

قبل أن أنهي الموضوع لا بد من التأكيد على أن مساحة الظنيات والمتغيرات في حياتنا أوسع بكثير من مساحة اليقينيات والثوابت، وأن معاناة مجتمعنا اليوم ممن يجزم بالظنيات أكثر من معاناتنا ممن يشكك بالثوابت.

إن الجزم في الظنيات مثل الشك في اليقينيات كلاهما مذموم، مثل المتقدّم على الخط والمتأخّر عنه

الاصطلاح، فانتقد العلماء في تعبيرهم (بالظن وغلبة الظن)، عن العلوم الاجتهادية الشرعية، لأن القرآن الكريم عاب على من يتبعون الظن.

والحقيقة أن هذا الفاضل لم ينتبه لاختلاف الاصطلاح، فمصطلح القرآن الكريم يتكلم عن التقليد الأعمى في العقائد، واتباع الخرافات والأساطير والأوهام والظنون، وهي هنا مرتبة الوهم، أما غلبة الظن فالعلماء يتكلمون فيها عن درجات العلم، ونحن متعبّدون بغلبة الظن، فغالب فقهنا من غلبة الظن، قال الإمام الشافعي رحمه الله: (مذهبنا صواب يحتمل الخطأ..) فهناك احتمال للخطأ فليس الاجتهاد يقينياً، بل غلبة ظن، كما كان الإمام مالك رحمه الله يفتي باجتهاده ويتمثل الآية الكريمة {إنْ نظنّ إلا ظناً وما نحن بمستيقنين} يشير بهذا إلى ظنية الاجتهاد، ولو كان الاجتهاد يقينياً قطعياً لما احتاج إلى اجتهاد آخر ولما تعددت الاجتهادات، ولكان كل شيء بيّناً واضحاً لكلّ الفقهاء.

كلاهما يؤدي لاختلال الصف واعوجاجه..

(٦) المبالغة والتهويل

الثنائيات في زماننا كثيرة، العقل والعاطفة، الذات والموضوع، نحن وغيرنا، المبدأ والمصلحة. فينبغي الحذر عند التعامل مع هذه الثنائيات، فمن الانسياق خلفها تصدر المبالغة في المدح والذم، ويأتي فن الهجاء والمديح في الشعر، أو الحط والتقديس في كتب المناقب، والمشكلة غالباً أنّ من يمدح قوماً يذمّ سواهم، ومن يمدح شيئاً يذم سواه.

فالمبالغة في مدح الفقهاء تقتضي غالباً ذمَّ الأثريين، أو بيان ضعفهم وعيوب منهجهم، ومدح المفسرين يقتضي ذمّ القرّاء، ومدح الآخرة يشتمل على المبالغة بالحطّ من شأن الدنيا، والنتيجة من كل ذلك ضياع الحقيقة.

وفي هذا السياق فإن الثقافة الكتابية في تعاملها مع هذه الثنائيات أقلّ عاطفة من الثقافة الشفهية؛ لأنّ الكتابة تأثيرها غير مباشر، فتحتاج جرعات عقلانية، وأقلّ عاطفية.

أسباب المبالغة:

للمبالغة أسباب منها:

١-التعصّب مع أو ضد:

وهو يستهوي عموم النفوس البشرية، لما جبلت عليه، أو لطبيعة الواقع الذي عاشته، أو لأن به استتباع الأتباع.

٢-حب الناس للغرائب:

كونها تلفت الأنظار، فلو كان الخبر أو صفة طبيعيين، فإنهما لا يلفتان النظر عادة، فيضطر القائل إلى المبالغة فيهما، ليلفت النظر ويتفاعل معه الناس.

٣-عدم معرفة طبائع الأشياء:

لكل شيء طبيعة خاصة، لها حد أعلى وحد أدنى، وما خالف ذلك يسمى مبالغة، فنحكم على ما تجاوز الحد بأنه مبالغة، ونضع حول الكلام إشارات تعجّب واستفهام، ولا نمرره ونصدّقه بسهولة، ونمتنع عن روايته -على أقل تقدير- أو نرويه ونشير إلى غرابته وضرورة التوثّق منه.

٤-حب الصناعة اللفظية:

كالسجع والطباق والنظم والشعر، ومع الأسف فإن أجمل الشعر أكذبه!

٥-الشعور بالنقص:

مما يدعو لنقد الآخرين، والمبالغة بمدح الذات على مستوى الأفراد والجماعات.

٦-الميل إلى التقديس:

لو تمعنت في كتب المناقب والسير وتراجم الرجال، لوجدت الكثير مما يخرج عن المنطق وأحياناً عن الدين، يروي ابن الجوزي عن رجل من خراسان يقول: عندنا في خراسان لا يرون أحمد بن حنبل من البشر بل هو من الملائكة! وأنّ الجن نعت ابن حنبل قبل موته بخمسين يوم.

فهل يصح أن نقول: إن الأنبياء ليسوا من البشر؟ حتى يصح أن نقول ذلك في الإمام أحمد ابن حنبل رحمه الله؟

وتقرأ عن عشرات الأشخاص وقد يصل إلى المئات وصف: "وحيد عصره وفريد دهره.. ومحيي الدين والملة". وهم متعاصرون! وما ذاعت هذه الأوصاف إلا في زمن الجمود والتقهقر الحضاري لأمتنا[٢١].

ولو رجعت إلى أقوال الأئمة المؤسسين لشهدتَ التواضع العلمي والتصريح بالظن باجتهادهم، لكن المقلدة والتلاميذ "يطيّرون شيخهم" كما يُروى في القول السائر: (الشيخ لا يطير، ولكنّ تلاميذه يطيّرونه) والمقصود أنّ الواقع شيء عادي، لكنّ رواية الأتباع والتلاميذ شيءٌ آخر، فيه الكثير من المبالغة!

٧-التسويق والمبالغة بالذم:

مثل كتاب الأغاني وما يحمله من زور وبهتان في حق الكثيرين من خيار الأمة، مما تشيب له الولدان، ويتنزّه عنه فسّاق زماننا فكيف بزمانهم!!

وكثيراً ما تجد ذلك بين الفِرَقِ والطوائف، حيث يستحلّ بعضهم الكذب في نصرة مذهبهم على مبدأ: "نكذب له لا عليه"، وقد روي أنه وُوجِه أحد الوضاعين بكذبه في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، في فضائل بعض الأعمال الصالحة، فقال معتذراً: أنا أكذب له (أي: لمصلحته) ولا أكذب عليه. (أي ما

(٢١) ينظر: التفكير الموضوعي، لأستاذنا الدكتور عبد الكريم بكّار حفظه الله.

يضر)[٢٢].

مرة أرسل لي صديق عزيز كتاباً اسمه (مذكرات مستر همفر) الجاسوس البريطاني في البلاد العربية، عاش في القرن الثامن عشر، وهي وثائقية تشير إلى أن له دوراً في إيجاد وتكوين الحركة الوهابية حينها، وذلك جزء من المؤامرة لتخريب العالم الإسلامي، بغض النظر عن اختلافنا أو اتفاقنا مع الدعوة السلفية أو الوهابية.

عندما أرسل لي الأخ الكريم (المثقف) الكتاب يريد أن يثبت لي أن الدعوة الوهابية مشبوهة النشأة، اطلعت على الكتاب فوجدت فيه عجائب، مثلاً في بدايته، يذكر الجاسوس: أنه التقى طالب علم متحمساً في مقتبل العمر، وأنه استدرجه بممارسة نكاح المتعة، كان هو الشيخ محمد بن عبد الوهاب.

منذ القصة الأولى داخلني الشك في واقعية هذه المذكرات أو صحتها، فثقافتنا نحن أهل السنة بعيدة كل البعد عن هذا الأمر "نكاح المتعة"، وأنا طالب علم شرعي وأعرف نفسيات طلبة العلم، بخاصة في بداية الطلب، زمن الحماسة والأحلام العريضة، والالتزام الديني الشديد، فهل أنا أشد صلابة في وجه المغريات، وأكثر التزاماً من محمد بن عبد الوهاب؟!

ويستمر الكتاب في سرد مروياته الزائفة بلغة مريبة، فضلاً عما احتواه من أخطاء تاريخية.

أول ما تبادر إلى ذهني هو أن أسأل عن هذا الكتاب باحثَ زمانِنا الكبيرَ (العم غوغل)، فإذا به مليء -ومنذ بداية النتائج- بمقالات تفنّد أكاذيب الكتاب، وتشير إلى مغالطاته، وبعض هذه النتائج يروي أن هذه المذكرات المزعومة هي من صياغة آية الله فلان الفلاني من علماء الشيعة!

فقلت لصاحبي: ألم يخطر ببالك أن تبحث عن الكتاب قليلاً قبل اعتماده ونشره، كونه دليل إدانة للحركة الوهابية أو السلفية المعاصرة؟!

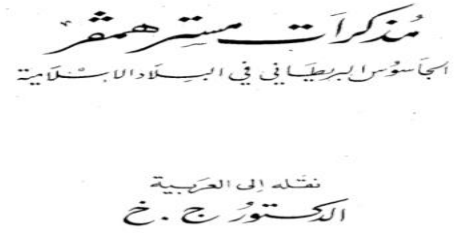
مذكرات مستر همفر
الجاسوس البريطاني في البلاد الاسلامية

نقله إلى العربية
الدكتور ج . خ

(٢٢) وطبعاً هذا المبدأ باطل يدل على جهل وقلة وعي، فالكذب على رسول الله ﷺ ليس كالكذب على أي أحد آخر، كما ورد في الحديث، لأنه مشرّع، والشارع الحكيم أدرى بنفوس الناس، والدين كامل لا يحتاج أن يزيد فيه أحد شيئاً، مما يجعل الدين معقّداً، كما أنّ الكاذب على رسول الله ﷺ يتلاعب بمعايير وأحجام ومكانة الأعمال، فيضر وهو يريد النفع!

مع الأسف كثيرون يستحلون الكذب في نصرة مذهبهم، ومن لا يستحله ينساق مع الأكاذيب دون شعور، لما يجد فيها من موافقة هوى نفسه.

٨-التسويق التجاري والسياسي:

فمن أبرز (مناجم) المبالغات الإعلانات التجارية: ثمة فرق مختصة من الإعلاميين ومحترفي الإعلان في ممارسة المبالغة المدروسة والمحكمة في كثير من الأحيان، والمبالغة المكشوفة في أحيان أخرى، وتستخدم كبريات وسائل الإعلام والتأثير في زماننا، والمشكلة في هذا النوع من المبالغات ارتباطه بالربح والمال والمصلحة والنفوذ والسيطرة، وهذه الخماسية تدفع كثيرين إلى الكذب الفجّ، والخداع دون أدنى وازع ديني أو أخلاقي أو رقابة خارجية!

(سائل للجلي: قاسي على الدهون، رفيق ورقيق على اليدين)؟!

كيف أمكنهم صياغة هذا الشعار المتناقض؟! كيف يكون قاسياً على شيء، وهيناً ليناً على شيء آخر من نوع قريب منه؟ أين ما يسببه من جفاف لبشرة اليدين وتخريب فيها؟ وأين التأثيرات السلبية للمنظفات الكيميائية على بشرة اليدين؟!

والمكنسة الكهربائية: تخترق السجاد حتى عمق ١٠ سم بمواد تنظيفها بحسب ادعاء المسوقين، رغم وضوح المشهد أمامنا أنها تنتج طبقة رغوة خفيفة جافة، يتم شفطها مباشرة بالمكنسة، فكيف ستخترق ١٠ سم من السجاد، وسمك السجاد لا يكاد يبلغ خمس سنتيمترات فقط؟!

وهذا الخداع الاقتصادي، بسيط جداً مقارنة بالخداع السياسي (البروباغاندا) وما يرافق الحملات الدعائية السياسية من تلميع وشطف للمرشحين، وما يقابل ذلك من النيل من الخصوم، والتشهير بهم وشيطنتهم والافتراء عليهم.

الإعلام السياسي في زماننا يطير بجناحين؛ الأول: الفخر بالذات، والثاني: شيطنة المنافسين! وفي الحالين تقع مبالغات كثيراً ما تصل إلى حد الافتراء والكذب! لذلك أكّدت الشريعة الإسلامية على الإنصاف والصدق والعدل، والقيام بالشهادة على وجهها، حتى لو كان المقابل لنا عدونا الذي نكرهه، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا، اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ٨]

إن كل ذلك التنفير عن الظلم أو الانحراف هدفه حفظ الحقيقة والحقوق، وحفظ الناس من الوقوع

في خلق المبالغة والظلم الذي يشوّه الوعي والحقيقة.

(٧) التعميم:

نحن مضطرون للتعميم في كثير من الأحيان، وإلا فلن نستطيع وضع قاعدة أو إطلاقها، لأن كل القواعد مبنية على التعميم، والجزئيات لا متناهية، فلا بد من تعميم كلي ليشمل الجزئيات، ونستطيع بالتالي الاعتماد على هذه القواعد في الحياة، فالخشب يحترق، هل أحرقنا كلّ أخشاب العالم واكتشفنا أنه يحترق؟!

لا.. لكننا اعتمدنا على الاستقراء، وهو الانتقال من الجزئيات إلى الكليات، وهي غالباً استقراءات ناقصة، فلا تشمل الجزئيات كلّها على اليقين. أما الاستقراء الكلّي الذي يكون عادة في عينة محدودة، فقد أخرجه فريق من العلماء من الاستقراء، كما لو قلتَ: (طلاب جامعتنا كلهم نالوا الشهادة الثانوية). فهذا استقراء بحسب بعضهم، ولكن من يرفض ذلك يتساءل: أين الاستقراء في هذا المثال؟! طالما أن المقدمة تساوي النتيجة؟.

المعتمد في الاستقراء هو الإحصاء، وكلما كبرت العينة وتنوّعت؛ اقتربنا أكثر من اليقين، مثل تجريب استخدام دواء جديد.

للأسف في كثير من الأحيان يطلق الناس تعميمات فيها مجازفة وشطح، مثل قولهم: الشعب الفلاني كسول، وكل أفراد القبيلة الفلانية دجّالون، وكل طلاب تلك المدرسة فاشلون! وهذا فيه افتراء يرفضه الدين، قال رسول الله ﷺ: (إِنَّ أَعْظَمَ النَّاسِ فِرْيَةً لَرَجُلٌ هَاجَى رَجُلًا فَهَجَا الْقَبِيلَةَ بِأَسْرِهَا)[٢٣].

تجنباً للوقوع في الافتراء، ينبغي علينا أن نستخدم عبارات مثل: (أغلب، وبعض، وكثير، وقليل، وأقل، وأكثر، وعامّة، وبالعموم..) بدلاً من: (كل، وجميع..) فالكلمات الأُولى فيها مجال للاستثناء، بينما الثانية تعمّ الجميع، وتقع فيها المبالغات والمجازفات، وهكذا يضيع الكثير من نقاشاتنا بين من يطلق التعميمات، وبين من ينشغل بإثبات الاستثناءات[٢٤].

جاء في القرآن الكريم في الحث على العدالة وتجنب الظلم ولو في القول ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾ [المائدة: ٨] وقال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ

(٢٣) ابن حبان وابن ماجه وصححه الألباني.

(٢٤) سيأتي الحديث عن ذلك موسّعاً تحت عنوان التعميم والتفكير الاستثنائي.

الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾ [الحجرات: ١٢] فالتعميم مخالف للمنهج القرآني الداعي إلى الوزن بالقسطاس المستقيم قال الله تعالى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (٧) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧-٨]. وقال رسول الله ﷺ: «إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ صَالِحَ الْأَخْلَاقِ»[٢٥] فاعترف الصادق الأمين ﷺ للأمم بأخلاقها وأنه جاء مكملاً ومتمّماً..

وقد فصّل القرآن الكريم في أهل الكتاب، حتى يعلّمنا الإنصاف ونبتعد عن التعميم، فقال سبحانه في حديثه عن درجات أمنتهم المالية: ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ، وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ، إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ﴾ [آل عمران: ٧٥].

وقال سبحانه في وصف إيمانهم وعبادتهم: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً؛ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ (١١٣) يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ، وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ (١١٤) وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١١٣-١١٥].

وقال سبحانه في الفصل بين أفراد العائلة الواحدة إيماناً وكفراً صلاحاً وفساداً: {ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا، فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا، وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ (١٠) وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ، وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ} [التحريم: ١٠، ١١]

فضرب مثلاً بكافرتين خرجتا من بيوت النبوة، ومؤمنة خرجت من بيت أكفر خلق الله.

إن تعميم حكم الشخص على من هو قريب منه، وإطلاق الأحكام وفق ذلك من أسوأ الأخلاق التي حذر منها القرآن الكريم، قال الله تعالى: {مَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ، وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا، وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى، وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا (١٥)} [الإسراء: ١٥]

(٢٥) قال الهيثمي في مجمع الزوائد ومنبع الفوائد (١٥/٩): رَوَاهُ أَحْمَدُ، وَرِجَالُهُ رِجَالُ الصَّحِيحِ، ورَوَاهُ الْبَزَّارُ، إِلَّا إِنَّهُ قَالَ: «لِأُتَمِّمَ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ».

(٨) التعميم والتفكير الاستثنائي

عندنا هنا علتان: العلة الأولى: التعميم، وعدم ملاحظة الاستثناءات الكثيرة.

العلة الثانية: عكس الأولى، وهي عدم احترام القواعد، وهدم القاعدة بالمثال الشاذ.

هما علتان متضادتان، وسأذكر في هذا الموضوع قاعدة وثلاثة أخطاء شائعة متعلقة بها:

القاعدة هي:

القواعد الإنسانية الاجتماعية أقل دقة وحسماً من القواعد في العالم المادي؛ فالقوانين الخاصة بمظاهر الطبيعة المادية تميل نحو الدقة والصرامة والاطراد، وذلك من رحمة الله، بنا فقد سخّر الله سبحانه الكون لنا، ولولا اطراد وثبات السنن وقوانين الطبيعة، لما استطعنا العيش في كنفها[٢٦].

هذا في العلوم المادية، أما في العلوم الإنسانية والاجتماعية فالأمر أقل صرامة واطراداً وأقلّ ثباتاً، سواء على مستوى الفرد، أو على مستوى الجماعات والمجتمعات والشعوب والدول، فالقواعد النفسية الإنسانية والاجتماعية قواعد أغلبية ومتعددة ومتنوعة للظاهرة الواحدة، مما يجعلها مسارات واتجاهات عامة أكثر منها قواعد جازمة قطعية.

وذلك بسبب تعدّد المؤثرات في النفس الإنسانية، واختلاف استجابة الناس تجاه المؤثر الواحد، واختلاف ردّات أفعالهم، لوجود إرادة حرة عند الإنسان، واختلاف نفسيات الناس وعقلياتهم ومبادئهم ومصالحهم ودوافعهم.

مثلاً: البيئة الفقيرة عامل تحدّ لمن يعيشون فيها، لكن استجابات الناس لتلك الصعوبات التي تحتويها البيئة الفقيرة، تختلف من إنسان إلى آخر، ومن مجتمع إلى آخر، فالفقر باعتباره تحدياً، قد يصنع إنساناً عصامياً، صاحب إرادة قوية، صالحاً وناجحاً.. وقد تتسبب البيئة الفقيرة ذاتها بوجود إنسان عاطل ومجرم فاسد، وذلك بحسب التنشئة والتربية والظروف، وطريقة استجابة الشخص.

إن هذا لا ينفي القاعدة العامة التي تقول: إن الفقر والتخلّف بيئة طاردة للكفاءات وقاتلة لها غالباً.

---

(٢٦) قد تكلمتُ -بتوسّع- عن احترام قانون الأسباب في حلقات من برنامجي (بصراحة)، منها حلقة بعنوان: (قانون السببية وانتظار المعجزات) وحلقة (علاقة التوكل بالتخلّف) وهو متوفر على اليوتيوب وينشر تفريغه النصي قريباً إن شاء الله.

الخطأ الأول: سرعة التقعيد

(أي السرعة في استنتاج القواعد ووضعها) بناء على الانطباعات، دون لغة رقمية علمية دقيقة: فالمعوَّل عليه في القواعد واستثناءاتها اللغة الكمية الإحصائية، وليس الانطباعات واللغة الكيفية.

فقول بعضهم: (البيئة الفقيرة سيئة تنتج الفاشلين) هذه لغة (كيفية) بينما الأدقّ هو الاستقراء الكميّ، الذي ينتج القواعد الكيفية المبنية على كميات وإحصاءات تقارن بين البيئة الغنية والبيئة الفقيرة، والبيئة المتوسطة بلغة الأرقام والإحصاءات، التي تعطي حقائق غير قابلة للتأويل أو المبالغة أو المحاباة أو التحامُل.

فحلّ هذه المشكلة يكمن في اللغة الكمية المبنية على إحصاءات نزيهة وحديثة، بدل اللغة الكيفية الانطباعية، بل الرغائبية في كثير من الأحيان[٢٧].

وفي هذا المقام نجد القرآن الكريم يعلمنا الدقة والضبط بالعدد والتسجيل، أو أي شيء يبعد عن العشوائية: {وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ، فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى، وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا وَلَا تَسْأَمُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَى أَجَلِهِ ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَى أَلَّا تَرْتَابُوا} [البقرة: ٢٨٢].

والنبي ﷺ استخدم أسلوب الإحصاء منذ فجر الدعوة، لضبط عدد المسلمين الأوائل في مكة المكرمة، قالَ النبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ((اكْتُبُوا لي مَن تَلَفَّظَ بالإسْلَامِ مِنَ النَّاسِ، فَكَتَبْنَا له ألْفًا وخَمْسَ مِئَةِ رَجُلٍ))[٢٨].

إذا كان الخطأ الأول يكمن في الاستعجال في وضع القواعد، فما الخطأ الثاني؟

الخطأ الثاني: التعميم وإنكار الاستثناء

نجد في واقعنا ميلاً جارفاً إلى التعميم، مع أنّ الدقة والمنهجية والموضوعية تقتضي أن نسلّم بأنّ "لكلّ قاعدة استثناءات" حتى لقولنا هذا، فمن الخطأ القول: (أهل البلد الفلاني أو المدينة الفلانية أذكياء أو أغبياء أو كرماء أو بخلاء..) بناء على بعض الحوادث فقط، وينتج عن الإطلاقات العامة وعدم ملاحظة

---

(٢٧) وقد مر معنا الحديث عن (التفكير الرغائبي).

(٢٨) رواه البخاري

الاستثناءات مخاطر وأخطاء منها:

١-التعميم مخالف للواقع، إذ لكل قاعدة استثناءات، كما يقال.

٢-التعميم مخالف للمنهج القرآني الداعي إلى الوزن بالقسطاس المستقيم قال تعالى: (: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (٧) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾.

٣-التعميم يدلّ على ضعفٍ في التفكير، والمنهجية العلمية والحكم على الأشياء.

٤-التعميم سبب للتوترات الاجتماعية، لما تشتمل عليه من ظلم وتعسّف ومبالغة.

فمن المفيد استخدام كلمة: (أكثر- بعض - غالباً- أحياناً- كثير- السمات العامة لهذا الأمر- الاتجاه العام هكذا لكن هناك استثناءات..) وعدم التعميم الجازم[٢٩].

الخطأ الثالث: هدم القاعدة بالاستثناء

وهذا الخطأ يأتي في مقابلة التعميم، فهناك من يركّز على الاستثناء ويهدم القواعد، فهو مولع بعدم التسليم بالأحكام العامة التي يتفق عليها الناس، لذلك يتفنن بنقض أيّ قاعدة تُقال أمامه بمثال يخالفها، ويتجاهل ما شاع بين أهل العلم من أن "لكل قاعدة استثناء" وأن "الشذوذ يؤكد القاعدة ولا يلغيها".

والملاحظ أنّ كثيراً ممن يعمّم ويهمل الاستثناء؛ هو نفسه يقع بالمشكلة الثانية؛ وهي نسف القاعدة بالاستثناء.

إن هذه العقلية منتشرة بشكل كبير في المجتمعات التي يشعر أفرادها بالنقص، أو يعانون من أزمات حضارية، إذ يمثل لهم إسقاط القاعدة بالمثال الشاذ طوق نجاة من الشعور بالدونية، أو النقص على مستوى الأفراد أو المجتمع.

إن بعضنا لا يريد أن يعترف بانتمائنا إلى "العالم الثالث" - وهو النسخة اللطيفة لمصطلح "العالم المتخلّف" - فيريد التعويض النفسي بنسف هذه الحقيقة العامة بإثبات بعض الاستثناءات:

فيقول مثلاً: عندنا فلان العبقري المخترع الذي يدير تلك الشركة العالمية الأجنبية أصله من سورية أو من مصر أو هو عراقي أو سعودي أو جزائري أو مغربي... مما يدل على عبقرية شعوبنا وتفوّق بلدان

(٢٩) قد مرّ معنا عنوان خاص عن التعميم.

المسلمين.

والحقيقة أنَّ ذلك المخترع ما هو إلا جزء صغير في آلة كبيرة، هي تلك الشركات الأجنبية الضخمة، بل نبوغ أبناء جلدتنا في تلك الدول هو وصمة عار على واقع بلداننا، حيث لم تؤمّن لأولئك النابهين بيئة حاضنة، ترعى طاقاتهم وعبقرياتهم، فلم تظهر طاقاتهم بهذا الزخم إلا في بيئة تلك الدول المتقدّمة!

صحيح أنّ كلّ الشعوب عندها عقول ذكية، وقابلية للتطوّر، لكن الأهم من العقل المفرد بيئات تكتشف الأذكياء، وتحتضنهم وتنمي قدراتهم وتؤمّن لهم مجالات للعلم والعمل والإبداع والاختراع.

ألخص مسألة القاعدة والأخطاء الثلاثة الشائعة معها، ببضع عبارات:

القاعدة: القواعد التي تتكلم عن السلوك الإنساني أقلّ دقة من القواعد التي تحكم العالم المادي.

الخطأ الأول: وضع القواعد بناء على الانطباعات دون إحصاءات بلغة رقمية علمية دقيقة.

الخطأ الثاني: التعميم وإنكار الاستثناء.

الخطأ الثالث: التركيز على الاستثناء وهدم القواعد.

(٩) ضعف التجريد والخيال

ضعف التجريد يعني ضعف الخيال، وعدم قدرته على صياغة المفاهيم والأفكار بعيداً عن الأشياء المادية، أو عدم القدرة على التعامل مع أفكار خارجة عن الخبرات السابقة والمعايَشة اليومية.

والخيال: هو القدرة على العزل المؤقت للظروف الحالية والأحداث الواقعية، وتخيل ظروف جديدة، وتقدير الاستجابات وردّات الفعل تجاهها ونتائجها.

من أهم أسباب ضعف القدرة على التجريد "الأمية"، فالقراءة والكتابة تمنح العقل ذخيرة متميزة، وقدرات جيدة على التجريد والتخيّل.

كما أنّ ضعف التجريد يجعل النقد الذاتي صعباً للغاية، فأنت بحاجة للتجرّد عن ذاتك، والنظر من الخارج وممارسة النقد، والقدرة على التمييز بين الإيجابيات والسلبيات، والتمييز بين الأشخاص وبين السلوكيات والأفكار.

وضعف التجريد يجعل الإنسان ضعيف التخطيط المستقبلي، لعدم القدرة على تخيل الظروف

الجديدة والقدرات والفرص والمخاطر والاحتياجات والتغيّرات.

وكثيراً ما نلحظ أثر هذا الخطأ في المشاريع والخطط الإصلاحية عند بعض الجماعات الإسلامية، فنتمنَّى أشياء ونضعها أهدافاً، وربما نُمتحَن ونُسجن ونموت من أجلها، وهي بعيدة التطبيق جداً عن الواقع، بل تخالف السنن وطموحات الناس وحاجاتهم وأحلامهم، وهذا كله من ضعف التخيّل والتنبؤ بالمستقبل ومآلات الأعمال والأفكار ونتائجها.

الإصلاح والتغيير يحتاج مواءمة بين الأحلام والأهداف وبين الواقع والخطط والآليات، وهذا يستدعي القدرة على التجريد.

أسأل الله أن يوسّع تفكيرنا ويهدينا سبل الرشاد ويوفقنا لما فيه خير البلاد والعباد.

(١٠) الانحياز ووهم الحياد

بداية... دعونا نقف قليلاً على معنى "التحيّز" في لغتنا؟

في اللغة؛ تحيّز إليهم، أو اِنْحازَ إليهم: انْضَمَّ إِلَيْهِمْ وَوَافَقَهُمْ فِي الرَّأْيِ[٣٠].

والانحياز أو التحيّز الذي نعنيه هنا هو: حكمٌ مسبَق في موضوع ما، أو قضية خاصة أو عامة بناء على أفكار مسبَقة.

فالانحياز يؤدي بالإنسان إلى قبول أو رفض ادعاء ما، ليس بسبب قوة الادعاء ومؤيّداته وبراهينه أو ضعفها، بل لكون هذا الادعاء لا يلائم معتقداته وأفكاره المسبَقة، أي تحيزه، وهو بهذا المعنى موازٍ للتعصّب والتزمّت والعنصرية.

أنواع الانحياز

قبل أن نمضي في الحديث عن التحيز، دعونا نقف قليلاً على هذا السؤال الصعب؛ الدين يجعلنا ننطلق من مسلّمات وعقائد ثابتة، فهل نسمّي هذا انحيازاً؟

الحقيقة: كلّ البشر بحاجة إلى عقائد ومسلّمات ورؤى ينطلقون منها في تعاملهم مع الحياة، وهذا ليس انحيازاً مذموماً، فالناس كلهم ينطلقون من رؤية كلية للكون تسمى عقيدة، حتى الملحد له معتقداته الخاصة التي ينطلق من خلالها في تعامله مع الكون، وإن رفض تسميتها ديناً.

---

(٣٠) ينظر: العجم الوسيط

إن التفريق بين الرؤية الكلية بمعنى العقيدة، والأفكار العامة، هو ما يمكننا من التمييز بين الانحياز إلى الكليات والقطعيات، وبين الانحياز إلى الظنيات ووجهات النظر، وهو ما يمكننا من تضييق الخناق على الانحياز المذموم المبني على الأهواء والتعصّبات، ويجعلنا نتفهّمهم المخالفين ونعذرهم، وبالتالي نكون أكثر تسامحاً معهم.

والانحياز نوعان: محمود ومذموم، فالمحمود هو الانحياز إلى الحق والمظلوم وحقوق الإنسان، والمذموم هو الانحياز إلى الجهل والظلم.

الانحياز إلى الحق والحقيقة واجب، وللإنسان أن يتحمّس لذلك، لكنه في الوقت ذاته ينبغي أن يوطن نفسه دائماً على فحص ما توصّل إليه من نتائج، والتراجع عندما يظهر له أن الحق في رأي مخالف لما هو عليه.

إن الإنسان الحق ينبغي أن يكون مستعداً دائماً للخضوع للحق متى لاح له، مستعداً دائماً للاستجابة الإيجابية للمنظومة القيمية والأخلاقية، مبتعداً بنفسه عن الاستكبار عن قبول الحق، أو الاستخفاف بحجج الخصم، فرأيه اجتهاد: قد يخطئ، وليس هو الحق المطلق! قال وكيع: "أهل العلم يكتبون ما لهم وما عليهم، وأهل الأهواء لا يكتبون إلا ما لهم".

إن التجرّد عن التحيّزات المسبَقة صعبٌ لا يطيقه الناس كلّهم، لذلك أكّد القرآن الكريم على العدل والإنصاف، وعدم مجانبة الإنصاف بسبب الانتماء والقرابة أو الصداقة والعداوة: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا} [النساء: ١٣٥]

أسباب التحيز

ينقل الأخوان أحمد سالم وعمرو بسيوني في كتابهما: "التحيز وضرره على الفقه والمعرفة - رسالة الحجاب للطريفي نموذجاً"، أسباب التحيز كما ذكرها الشوكاني في كتابه "أدب الطلب ومنتهى الأرب"، وهي:

١-النشأة في مجتمع أو جماعة تتبنى هذه الأفكار.

فمن أسباب الانحياز الانتماء إلى جماعة أو تيار، الانتماء حق طبيعي، لكن هذا لا ينافي الإنصاف والبعد عن التعصب واحترام جهود الآخرين.

مثلاً: لو فعل شخص "من جماعتنا" شيئاً فيه إقدام، نصفه بالتقدم والمبادرة والشجاعة، ولو فعل الشيء

نفسه أحد خصومنا سُمِّي: تهوراً وطيشاً واندفاعاً غير مدروس. ما سبب ذلك؟ إنه التحيز المذموم.

٢-مو افقة الاتجاه العام:

كتوجّه الدولة السياسي، أو التوجه المذهبي الديني، أو الاجتماعي.

٣-مو افقة توجّه الأهل والأجداد:

وقد تذرع الكفار بذلك لرفضهم الحق، وذمهم القرآن الكريم على ذلك.

٤-أن يقول القول ويشتهر عنه، فيشقّ عليه التراجع عنه.

يقول الشيخ المعلمي رحمه الله:

"وبالجملة فمسالك الهوى أكثر من أن تُحصى، وقد جربت نفسي أنني ربما أنظر في القضية زاعماً أنه لا هوى لي، فيلوح لي فيها معنى، فأقرره تقريراً يعجبني، ثم يلوح لي ما يخدش في ذاك المعنى، فأجدني أتبرم بذاك الخادش وتنازعني نفسي إلى تكلّف الجواب عنه، وغض النظر عن مناقشة ذاك الجواب، وإنما هذا لأني لما قررتُ ذاك المعنى أولاً تقريراً أعجبني صرت أهوى صحتَه، هذا مع أنه لا يعلم بذلك أحد من الناس، فكيف إذا كنتُ قد أذعته في الناس، ثم لاح لي الخَدْش؟ فكيف لو لم يلح لي الخدش ولكن رجلاً آخر اعترض عليّ به؟ فكيف إن كان المعترض ممن أكرهه؟ هذا ولم يُكلَّف العالمُ بأن لا يكون له هوى؟ فإن هذا خارج عن الوُسْع، وإنما الواجب على العالم أن يفتّش نفسَه عن هواها حتى يعرفه ثم يحترز منه، ويمعن النظر في الحق من حيث هو حق، فإن بان له أنه مخالف لهواه آثر الحق على هواه"(٣١)

٥-أن يكون المخالف أقل منه: سناً أو مكانة أو (قرينه) فيَحمل المخالفة على حسد الأقران.

٦-اعتقاد صواب قواعده مما يمنعه من النظر فيما يخالفها.

٧-النظر في أدلة فريقه وأدلة خصومه من خلال كتب مو افقيه.

٨-الاعتماد على جرح غيره وتعديله دون أن ينظر هو في الأمر.

٩-جعل الرأي من القطعيات: أو المجمَع عليه، أو من الثوابت، وهذا مضرٌ بالثوابت ذاتها،فعندما يظهر أنّ هذا الرأي ليس ثابتاً، ينتقل الشك إلى الحقائق.

---

(٣١) ينظر: التنكيل بما في تأنيب الكوثري من الأباطيل (٢٥٢/٣)

١٠-**اعتقاد أن الحق واحد في القضايا كلها**، حتى يظن بعضهم أننا لو أمعنا النظر في قضية ما، سنصل كلنا إلى رؤية متحدة حولها، طالما كان رائدنا وهدفنا الحق.

وهذا وهم. فالعقل لا ينظر إلى القضايا دون أفكار وعقائد وخبرات سابقة، وثقافة غالبة، وعواطف ورغبات، تكون بالنسبة له كالنظارة التي يرى بها إلى الأشياء من حوله.

نعم يمكن الاتفاق على معلومات رياضية أو علمية تطبيقية، بسبب صلابتها وثباتها وعدم وجود إرادة حرة لها عكس ما له علاقة بالبشر، فالاتفاق في الإنسانيات والاجتماعيات والفكريات شيء محدود.

أسأل الله أن يلهمنا رشدنا، وأن يرزقنا العدل والإنصاف.

(١١) تفكير البُعد الواحد

الحياة معقّدة والحقائق فيها مثل الطبقات، كلما اكتشفتَ وتعمّقتَ تظهر لك حقائق أكثر وأعمق، أما العقلية البسيطة فإنها تميل نحو التبسيط لسهولة الحفظ والتذكر والاستدعاء، وربما يكون ذلك بسبب عدم انتشار الكتابة والقراءة عند الأميّين، فيتخفّفون من التفاصيل قدر الإمكان.

إن أكثر المعاني انتشاراً ما صيغ بشعار بسيط، لكن مشكلة الشعارات أنّ فيها اختزالاً واختصاراً -كثيراً- ما يكون مخلاً ومضلِّلاً.

وهنا أسوق مثالاً خيالياً، لكنه مفيد في تقريب الفكرة:

لنفترض أنّ إنساناً نشأ في بيئة ليس فيها إلا شجر التفاح، فوعيه لن يعرف إلا شجر التفاح، وهذا أسهل لتفكيره، لكنه لو خرج من محيطه الضيق، وانطلق إلى الحياة ،سنجد أنه كلّما اطلع أكثر كلما تعقّدت وتشعّبت معلوماته أكثر، وهكذا يستمر في اكتشاف أنواع أخرى من النباتات ثم الحيوانات ثم البيوت والبلدان والمدارس والأمراض والأدوية والناس، وهكذا كلّما ازدادت المعرفة تعقّدت وتعمقت، ولكنها بذلك تكون أكثر موافقة للواقع من المعرفة البسيطة السهلة التي كان عليها سابقا.

كثير من القواعد البسيطة توقعنا بكوارث، مثل: قاعدة: "العالم كله ضدّ المسلمين" التي اعتمدتها جماعات إسلامية طويلة عريضة، وآمنت بها من خلفهم أمم من الناس، بسببها لا نستطيع إقامة علاقات بين الدول ولا نميّز بينها، والواقع أن الدول أنواع، وحتى في الدولة الواحدة توجد أحزاب واتجاهات مختلفة، بعضها يتعاطف معنا، وآخر يحمل ضدنا حقداً لا ينتهي، وثالث لا يتعاطف ولا يحقد.

إن مقولة "ملة الكفر واحدة" التي تشيع في هذا السياق، تخالف قوله تعالى: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً﴾، فبعض الكفر أهون من بعض، ولهذا أجاز الإسلام الزواج من بعض أهل الكفر وهم أهل الكتاب.

وهنا يتلاقى خطأ التفكير ذي البعد الواحد، مع الخطأ الناتج عن التعميم؛ إن الناس مغرَمة بذكر الأشياء الوحيدة الثمينة بالنسبة إليهم، فالعامل الوحيد والسبب الوحيد والحل الوحيد والعيب الوحيد هو كذا، حيث يدمنون النظر من زاوية واحدة، ويفسرون كل الظواهر الكبرى والقضايا الشائكة، بسبب واحد وعامل واحد.

لدى معظم الناس رغبة شديدة في التبسيط، وتجنّب تراكم الأشياء، والبعد عن تعقيد الأمور، ويتفنّنون في بيان مزايا هذا الشيء الوحيد، وخطورته وأهميته، ولكن لدى العلماء الأمر مختلف، فقد كان علماؤنا الأقدمون لا يثقون كثيراً بمن لم يسافر في طلب العلم، ولم تتعدد مشاربه فيه، لأن ذلك يحكم عليه بالمحدودية.

وبالنسبة إلى المجتمعات نلاحظ أنّ سكان العواصم أكثر تسامحاً مع المخالِف لهم، لكثرة خلطتهم بأنواع من الناس، ولاطلاعهم على ثقافات متعددة، ولاتساع وعيهم.

الحقيقة: أنّ للمشكلة الواحدة الكبيرة عدة أسباب، وليس سبباً واحداً، ولها عدة حلول، وليس حلاً واحداً، نعم قد يكون هناك أسباب أو حلول أساسية، وأسباب وحلول فرعية أو ثانوية، لكنها متعددة، فمن الخطأ المنهجي الاختزال والاختصار وإهمال العوامل والأسباب المتعددة.

قد يكون من أسباب الاقتصار على سبب واحد لدى بعض الناس وفرة المعلومات التي تؤيّد السبب الواحد، مما يزهّد بالبحث عن غيره من الأسباب والعوامل والحلول.

ومن أسباب ذلك التخصص ،فكل مختص ينظر من إطار اختصاصه فقط، لذلك من المهم استشارة جميع الاختصاصات عند مناقشة القضية الواحدة، وهم يقررون علاقة الأسباب بالموضوع، أو مدى تداخل الموضوع مع اختصاصاتهم، فقد تستبعد اختصاصاً ظناً منك أنه لا علاقة له بهذه القضية، فيظهر خطأ تصرفك عندما تستشير أصحاب الاختصاص.

وهنا تظهر أهمية اتساع الثقافة وتعدّد زوايا نظر المثقفين، وضيق نظرة المختص الواحد في أمر متشعب، لكن لا غنى لنا عن دقة نظر المختصّ واتساع رؤيته ضمن اختصاصه.

ومن أسباب التركيز على بعض العوامل وإهمال غيرها، امتداد بعض الظواهر الاجتماعية

وتعقّدها، عبر الزمان والمكان كالحروب أو التخلف أو الانقسامات الجغرافية، في مقابل محدودية اطلاع الإنسان، مما يؤدي إلى الاقتصار على عامل واحد، بحسب عقل ذلك المحلل، فلا ينتبه إلى تمدد أسباب هذه الظاهرة التي يناقشها وامتداداتها.

ومن الأسباب: عدم الاختصاص، وضعف الخبرة، وقلة المعلومات المتاحة في المجال المبحوث عنه، مما يجعلنا نتمسك بما يقوله الخبير الوحيد، ونعرض عن التفكير في أسباب أخرى!

ومن أسباب ذلك ضعف الخيال، الذي مر سابقاً، فالمشكلة تكمن في أنّ التعلّق بسبب واحد عام، يمنع من البحث في التفاصيل، وبالتالي نعجز عن معرفة الحلول الناجعة.

ومن أوضح أمثلة ذلك ما يقوله بعض الدعاة - الغيورين الطيبين - : إنّ سبب كل مشكلة وظاهرة سلبية هو: "البعد عن الإسلام". ونحن نوافق على هذا.. لكن تعاليم الإسلام وآدابه وعقائده ومبادئه وأخلاقه كثيرة، وتداخلها مع سنن الله في الخلق معلوم، فأيُّ المنهيات نحن نرتكبها وتؤدي إلى تخلفنا؟! وأي الأوامر نحن مقصّرون بها؟!

إن كثرة المأمورات بها، والمنهيات عنها، وتداخل الإشكالات تدلّ على أنّ الصلاح يحتاج شبكة أعمال صالحة، ومثله الفساد، فهو عبارة عن شبكة من الأعمال الفاسدة.

وكل معصية لها عقوبة من جنسها، فمن ترك مقاومة الاستبداد بُلي به، ومن ترك ردع الظالم ابتلي به، ومن تفشّت فيهم فاحشة الزنا بلاهم الله بتفكك الأسر ،وبقلة النسل وبالأمراض الجنسية.

إذن فالأجوبة المُجْمَلة - مثل قولهم: البُعد عن الدين - لا تكفي في تشخيص الأمراض، بل تسهم في تسطيح القضايا المعقدة، إذ غالباً ما يقصد بهذه الكلمة تصورات مجتزأة عن الدين، لا تمثل امتداد الدين وسعته في عالم الحياة.

أسأل الله أن يحسّن تفكيرنا ويوسّعه ويوفقنا لما فيه رضاه.

(١٢) التعصب

التعصّب غالباً ينشأ عن احتكار الحق، فبعض الناس يرَون أنفسهم معيار الحق ومقياسه، فما يرونه حقاً هو الحق وما عداه هو الباطل.

وللتعصب أشكال ومظاهر؛ منه تعصّب للمذهب أو للقبيلة أو الأسرة أو للبلد أو للجماعة أو للتخصص العلمي أو المهني، فمهنتنا أشرف المهن، وتخصصنا أهم التخصصات، وقبيلتنا أشرف القبائل ومذهبنا هو الحقّ وما سواه باطل!

ومن مظاهر التعصّب وصف قوم بأكملهم: بالدجل أو الكسل أو الجبن أو الخنوع.. مع أنّ كل قوم مثل البستان فيهم الحلو والحامض واللفان، كما يقول مثَلنا.

المتعصّب يحتكر الحق ولا يقبل بالنقد، لذلك شاعت فكرة: "الإصلاح من الخارج مستحيل"، انتسب إلى الجماعة ثم انقد، وهذا من التعصب الواضح، فهل نسمع فقط لأصدقائنا؟ أم نستفيد من نقد الجميع حتى من نقد الأعداء، كما قال الشاعر:

عِداتي لهم فضلٌ عليّ ومِنّة ** فلا صَرَفَ الرحمنُ عنّي الأعاديا

هم بحثوا عن زلّتي فاجتنبتها ** وهم نافسوني فاكتسبت المعاليا

لسان حال المتعصّب يقول: "ما نراه حسناً هو الحسن، وما نراه قبيحاً هو القبيح مطلقاً". وهذا من تمدّد الشخصية الطفولية، وتضخّم الأنانية وسيطرتها على الذات.

من الملاحظ أنّ المختص والعالم والباحث والخبير معتدّ برأيه، فهل هذا من التعصّب؟

الجواب: ينبغي وضع ميزان وفيصل بين صاحب الرأي العادي، وبين المتعصب. ولعل أهم نقاط الفرق بينهما هي أنّ صاحب الحقّ لا يستنكف عن سماع الآراء المخالفة، ويقيّمها تقييماً موضوعياً يخضع للحق عندما يظهر له. بينما المتعصب بعكسه.

ومن مظاهر التعصب اعتقاد أن عاداتنا وتقاليدنا هي الأصوب والأفضل اعتماداً على مبدأ: "عادات السادات سادات العادات" فنحن الأسياد وعادتنا سادات العادات! مع أن تعاليم الإسلام واضحة جداً بهذا السياق، فالأصل في الأشياء الإباحة، وفي باب المباحات لا عتب ولا لوم، والأمر فيه سعة، فلا يجوز أن أُلزم

الناس بما لا يستسيغونه أو لا يرتاحون إليه، ما دام في دائرة الإباحة.

مثل بعض العادات والتقاليد في المأكولات والمشروبات والأثاث واللباس، فكم تدور المناحرات والمشادات بسبب التفاضل بين هذه الأمور، وهي في النهاية تباين في الأذواق، بل كثير منها أَمْلَتْها ظروفٌ مناخية وجغرافية وأمنية، وتوفر مواد أولية في بعض البيئات، وليست اختياراً محضاً مطلقاً دون احتياجات وظروف وضرورات ملجِئة لهذه الخيارات!

ها هو رسولنا الكريم ﷺ عافت نفسه أكل الضب، ولم ينكر على صاحبه الجليل خالد بن الوليد ﷺ أكله الضب في حضرته، وعلل ذلك بأنه يجد نفسَه تعافه، فهو ليس من مأكولات قومه[٣٢]!

بعض صفات المتعصّب لرأيه:

١- لا يميز بين الحقائق العلمية وبين النظريات والفرضيات، ولا يميز بين الثوابت والمتغيرات، ولا بين المبادئ والأحكام المجمَع عليها، وبين المختلَف فيه، والقاعدة في هذا كما يقول أستاذنا البكار: "كلما اتجهنا نحو الأصول ندر الخلاف، وكلما اتجهنا نحو الفروع ندر الاتفاق" وهذه قاعدة عامة في شؤون الحياة.

مشكلتنا مع من يتوسعون بالثوابت، فيجعلون اختياراتهم في فروع العقيدة والفقه والسلوك والإصلاح، بل والشؤون الاجتماعية كلها ثوابت.

ومن هنا نرى فداحة خطأ الكثير من الصراعات المريرة بين المدارس والمذاهب الفقهية واللغوية والعقدية والسلوكية والجماعات الإصلاحية.

فالقطعيات قطعيات عند الجميع، مثل أصول العقيدة (أركان الإيمان) وأصول العبادات والفرائض والواجبات والمنهيات، وأمهات الفضائل وأمهات الرذائل.

إذن عندنا منطقة صلبة هي المركز، وحوافها مرنة تعتريها الخلافات، وتحتمل وجهات النظر والاجتهادات.

فصلة الرحم متفق على فضلها، لكن كيف نطبقها؟ ممكن أن نختلف، فكل شخص يمكن أن تكون

---

(٣٢) روى البخاري في صحيحه: عن خالد بن الوليد ﷺ: أنه دخل مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بيت ميمونة، فأتي بضب محنوذ فأهوى إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده، فقال بعض النسوة: أخبروا رسول الله صلى الله عليه وسلم بما يريد أن يأكل. فقالوا: هو ضب يا رسول الله. فرفع يده. فقلت: أحرام هو يا رسول الله؟ قال: " لا، ولكن لم يكن بأرض قومي، فأجدني أعافه"، قال خالد: فاجتررته فأكلته، ورسول الله صلى الله عليه وسلم ينظر.

له طريقته بصلة الرحم، أو بر الوالدين، ويرى غيره متساهلاً أو مبالغاً.

والصدق والأمانة والشجاعة والكذب يتفق الناس عليها قبولاً أو رفضاً، ويختلفون في تطبيقاتها.

وفي فرْضِية تكرار قوله تعالى: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ يومياً إشارة لالتباس القضايا كثيراً أمام المسلم، مما يُحوِج المسلم إلى طلب الهداية بشكل دائم في ظل هذه الخيارات الكثيرة!

٢-من صفات المتعصّب أنه يستوحش أو ينفر من الرأي المخالف، ويستأنس بالرأي الموافق، لذلك فهو لا يقرأ للمخالِف، وإن قرأ ينظر للرأي المخالِف بشك وريبة، وقد يَعتبر الآراء المخالفة له شبهات، يبحث عن ردود عليها، فهو يتلقى الأفكار بلسانه، لا بأذنيه وعقله.

وقد يبتعد المتعصّب عن الاطلاع على الآراء المخالفة، مدفوعاً بخوف غامض! لذلك نرى من يتوسع بقراءاته واطلاعه أرحب صدراً وأوسع فكراً وأكثر تفهّماً للمخالف وقبولاً، أو إعذاراً -على أقل تقدير-.

٣-علاقات المتعصّب محدودة ومقتصرة على من يوافقه الرأي غالباً، حتى يحافظ على نقاء فكره ولا يعكّر صفوه مخالف، فهو يضرب سياجاً حول أفكاره، والناظر في تاريخ بعض الفرق والمذاهب الغريبة يجدها باطنية سرية غير معرضة للنقد، ولا تقبل التلاقح مع غيرها، وهذا من أسباب بقائها رغم سخافتها في كثير من الأحيان، ولولا هذه السرية لاندثرت منذ زمن بعيد والله أعلم.

٤- المتعصّب لا يحترم حتى المختصين! فلو تبنّى رأياً فقهياً يتهم من يخالفه حتى من المختصين، ولو تبنّى رأياً طبياً اتهم المخالف، يخالف المختص حتى يثبت رأيه!

فالتعصب أحد أبرز أمراض التفكير التي قد توقعه في الشلل أو تمنعه من الإنتاج في زماننا.

(١٣) التفكير الجاف والعاطفة

التفكير الجاف: هو التفكير الذي يهمل العواطف والأحاسيس والمشاعر، فلا يلتفت إليها عند التفكير وتقدير الأمور.

مشكلة هذا النوع من التفكير أنه لا يعترف بهذه الأمور فيما يظهر ولا يضعها على طاولة التفكير الواعي، فتبقى تعمل في الخلفية اللاواعية، وتؤثّر في القرارات والنتائج دون وعي منا بها.

لنستمع لهذه العبارات، ولْننظر كم هي المشاعر والأحاسيس حاضرة في واقعنا؟ وكم هي مؤثّرة في تفكيرنا وقراراتنا:

أ- غير مرتاح لهذا الشخص، ولا أريد إقامة أي عمل مشترك معه، لا تسألني عن السبب، لأنني غير مرتاح بتاتاً إليه.

ب- لا أشعر بالارتياح لهذه الشروط التي ذكرها عند التعاقد.

ج- أشعر بالقلق والخوف من الاستمرار بهذا المشروع.

د- غير مرتاح لهذه الشركة، لهذه المدينة، لهذا البلد، لهذا الموظف، لم أرتح لهذه العائلة ولا أريد الاقتران بها.

إذن.. من المفيد جداً وضع الأحاسيس والمشاعر تحت ضوء النهار، ووضعها على طاولة النقاش، لنسمح لها بالتعبير عن نفسها، بكل وضوح وشفافية، حتى لا تعمل عملها في الظلام، بعيداً عن أعين رقابة الوعي، والنقاش المحايِد والنقد العلمي.

لماذا يجب أن نعبر عن مشاعرنا ونفكر فيها؟

لأن المشاعر مثل: (الحب- الكره –الغيرة- الشك -الخوف -الميل -الانجذاب -النفور- الغضب) هذه المشاعر كثيراً ما تكون مبنية على انطباعات أولية سريعة، وغير متأنية، بل كثيراً ما تكون غير صحيحة، وغير كافية لتكوين نظرة شاملة عن شخص أو موقف ما!

الانتباه إلى المشاعر الخفية وإظهارها والتفكير فيها يجعل قراراتنا واضحة الدوافع والأسباب، فمثلاً: أحياناً نعارض ترقية أو إبراز موظف ما بسبب مشاعر غَيرة وحسد دفينة لا نشعر بها.

لذلك من الضروري الانتباه إلى الأهواء والرغبات وحرص الناس على مصالحهم الخاصة.

من المؤسف في واقعنا اليوم أنه كثيراً ما تتفوق المصالح والرغبات الخاصة على المبادئ والقيم العامة، فعند تعارض المبادئ العامة مع المصالح الخاصة، يتم -غالباً- تقديم المصالح الخاصة وتأويل المبادئ، يتم تأويل المبادئ لإقناع الناس بصحة ما نفعله، بل لتخدير الضمير أحياناً، لنأخذ مثالاً على تأويل المبادئ كثيراً ما نراه في واقعنا، وهو مثال "الاضطرار"، حيث يقترف الإنسان خطأً عامداً متعمداً، ثم يسوغ ذلك وفق قاعدة الضرورة، وربما يستشهد بقوله تعالى: ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ﴾ .

إن مجرد معرفة تأثير المشاعر وتأثير الحرص على المصالح الخاصة، ونقل المشاعر إلى ساحة التفكير الواعي ومناقشتها؛ مفيد في اكتشاف دوافعنا مما سينبهنا إلى تأثيرها على تفكيرنا وقراراتنا.

متى نفعل ذلك؟

في ورشات العمل وجلسات العصف الذهني، ولقاءات النقاش والحوار، من المفيد جداً الانتباه إلى العواطف والأحاسيس، ولا يعني هذا السماح بالتعبير عنها، بل الطلب من أصحابها بالتعبير عن مشاعرهم وأحاسيسهم، فهذا يجعلها تحت الضوء والسيطرة، ويخفّف الشجار والخلافات.

وهنا من الواجب طلب التعبير عن المشاعر من قبل كلّ أطراف الحوار والتعاقد، حتى بطريقة الحوار أو العقد، فيقول شخص: أنا غير مرتاح لطريقة عقد هذه الصفقة، أو: أنا مستاء من طريقة إدارة الحوار، أشعر بحِيلة ولعب في إدارة هذا الملف... فلا نترك هذه المشاعر تعمل في الخفاء وتسيطر على تفكير بعض الأطراف، واتخاذهم قراراً ما، دون إعلان الأسباب، فربما يتعذرون لقراراتهم بأسباب أخرى كثيراً ما تكون غير مقنعة وغير حقيقية، ولو أنهم سمحوا لأنفسهم بالتعبير عن عواطفهم أو أحاسيسهم لتجنبوا الكثير من الاختلافات.

في المقابل.. عندما نقوم بوضع المشاعر والأحاسيس مكشوفة أمام الجميع، ونناقشها مناقشة موضوعية، فإنّ هذا يفتح فرصة لتغيير العواطف السلبية، عندما نكتشف خطأ اعتقاداتنا، أو نكتشف أنها بنيت على أوهام... فكثيراً ما تكون المشاعر مضللة وقد نبّهنا القرآن الكريم إلى ذلك قال تعالى: {كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ، وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ، وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ، وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ} [البقرة: ٢١٦]، وفي العلاقة بين الأزواج قال الله تعالى: {وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ، فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا} [النساء: ١٩].

فلو عبرنا عن مشاعرنا لظهرت لنا حقائق أخرى.. مثلاً تقول: أنا غير مرتاح لهذا الموظف فهو غير كفء، ويرغب بالاستمرار معنا، لأنه لن يجد عملاً آخر، وليحافظ على راتبه معنا فقط.

فيأتي من يصحح لك المعلومة، ويقول: "بالعكس هذا الموظف كفء، وقد جاءته عروض أفضل منا، وبقي معنا لأنه مرتاح معنا ويثق بنا"، فقد تقتنع بكلامه، حينما تتحقق منه. وهكذا فالكثير من المشاعر يتم تغييرها نتيجة عرضها على الآخرين ومناقشتها معهم.

من المفيد في موضوعنا تخيّل تغيّر المشاعر في الموقف، وأثره على قراراتنا، مثلاً نقول: نحن نتفاوض والشك والريبة تملأ النفوس، لنتخيل أننا نثق ببعضنا كيف ستسير الأمور وما نتائجها؟

أو: هناك شعور عارم أنّ اتفاقنا لن يغير شيئاً! لنتخيّل أن اتفاقنا تمّ وانظروا ما هي نتائجه الإيجابية على الجميع!

كما أنّ معرفة الحساسية والمشاعر الشديدة تجاه بعض القضايا يجنّب الاصطدام غير المقصود بين الأطراف، ويزيل التوتر من الطرف الحسّاس، فمثلاً: أنا أعلم حساسية علاقتك بإخوتك، لذلك لن نقترب من هذا الأمر بتاتاً.

إذن إهمال الانتباه للعواطف وعدم التعبير عنها وترك توضيح المشاعر والأحاسيس لن يحيّدها، بل على العكس سيجعلها تعمل بشراسة في الظلام، ولن تترك للتفكير المنطقي القدرة على الانفراد بالقرارات.

وسأختم بنقطتين مهمتين تتعلقان بموضوع تأثير المشاعر على التفكير:

النقطة الأولى الحَدْس:

قد يشكل علينا موضوع الحدس، والحدس هو: الحكم على أمر، نتيجة خبرات متراكمة، وعدم القدرة على التعبير عن سبب الحكم والقرار بشكل واضح، فيقول صاحب الحدس: حدسي يقول هذه الصفقة رابحة، أو أشعر بالخوف من هذه الصفقة. ولو سألت صاحب الحدس عن سبب حكمه تجده لا يعرف الأسباب.

ولعدم القدرة على التعبير الواضح عن أسباب الحكم يُوضع الحدس أحياناً ضمن الأحاسيس والمشاعر، وإلا لو كان الحدس مبنياً على أسباب علمية واضحة كنا اعتبرناه تفكيراً علمياً.

فالحدس ينتج غالباً عن خبرة متراكمة، وكما أنه لا يمكن أن يقام مقام العلم، فإنه لا يجوز في الوقت ذاته الاستهانة بخبرة الخبراء، فبعض التجار يوصف بأنه يشم رائحة المال أينما وجد، فيدخل مشاريع بناء على حكم حدسه، ولا يظهر على هذه الصفقات الربح لبقية الناس، وتكون في نهايتها رابحة جداً. وعادة ما يكون القادة العسكريون الناجحون، والعلماء المبدعون، أصحاب حدس عالي الجودة.

النقطة الثانية: تأثير الأفكار في المشاعر

كما أن المشاعر تؤثر على التفكير، فإن الأفكار تؤثر في المشاعر، لأنّ إدراكنا للأمر بشكل مختلف يغيّر شعورنا نحوه، مثل: من يتضايق ويغضب إذا نظر إليه شخص وهو مقطب الحاجبين، عابس الوجه، بينما سيتعاطف معه بشدة لو علم أنه فقد أحد أقاربه منذ ساعة!

فالأفكار تؤثر في المشاعر، انظر كيف ستخفّ مشاعر الحزن والندم، وربما تنقلب إلى رضا لو قيل لك: لا تعتبر هذه الخسارة عيباً أو فشلاً، بل اعتبرها خبرة في رصيدك.. وستستفيد منها كثيراً في المستقبل، أو قيل لك: الحمد لله الآن الخسارة بسيطة، لو ارتكبت الخطأ نفسه في صفقة كبيرة لكانت كارثة.

فتغيير طريقة تفكيرك بهذه الكارثة ينعكس على مشاعرك ويغير أحاسيسك.

ختاماً:

قال الله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا} [الأنفال: ٢٩]، صدق الله العظيم. حقيقة إن التجرد عن الأهواء والرغبات والمطامع والشهوات والمصالح الشخصية والآنية، له تأثير كبير على صحة التفكير كما أنّ حلية التقوى تزيد في البصيرة.

أسأل الله أن يرطّب تفكيرنا بندى المشاعر والأحاسيس، ويعافينا من داء التفكير الجاف، وأن يجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه.

(١٤) التفكير الرغائبي

هذا النوع مشتق من الرغبة والتمني، والمقصود به تخيل ما نرغب به واقعاً أو هدفاً واقعياً قابلاً للتطبيق، فلا نفرّق فيه بين ثلاثة أشياء: الواقع والهدف الممكن والهدف المستحيل.

هنا سنتكلم عن (الواقع) و(المتوقّع)، أو ما هو (كائن) وموجود، وما (سيكون)، مما نتمنّى وجوده كهدف، وهو نوعان: هدف واقعي، وهدف مستحيل.

أولاً: ينبغي أن ننتبه إلى أن الحكم على الواقع مع عدم فهمه بشكل دقيق، هو في الغالب حكم أيديولوجي. سببه عدم قدرة الشخص على التفكير بموضوعية وواقعية وتجرد، فلا يفرق بين (ما هو كائن) وبين (ما يريده)، ويظن أن ما يريده واقع، ويدخل في جو من الأحكام المثالية التي لا وجود لها في الواقع.

مثلاً: الحكم على درجة التزام منطقة ما، هل سنختلف على تعريف الملتزم، كما سنختلف في تحديد الصفات التي تضع الشخص في عداد الملتزمين؟ أو تلك التي تخرجه منهم، أو تجعل التزامه خفيفاً؟ وأكثرها أحكام انطباعية بسيطة، ولو سألت عشرة أشخاص... ستأخذ عشرة أجوبة مختلفة، لعدم موضوعية التقييم.

إن المزاجية كثيراً ما تسيطر على الأحكام التي يطلقها الناس بحسب الموقف الذي يتكلمون فيه، فإن كان الإنسان يتحدث عن أهمية الدعوة يستدعي لا شعورياً صور الابتعاد عن الدين والالتزام به، وإن كان في موقف يدعو إلى التفاؤل، يقول: الناس بخير، والحمد لله، ويستدعي لا شعورياً الصور المشرقة ليستدل بها على ما يقول. إن هذه الآنية في الحكم نوع من أنواع التفكير الرغائبي الذي يخل بالتفكير الصحيح.

وهاكم مثالاً آخر من الواقع: نجد بعض العلمانيين يكررون كثيراً مقالة: الناس تخاف من حكم الإسلاميين. فهم يعطون حكماً على الواقع، بناء على تمنياتهم ورغباتهم، وليس بناء على الحقائق، وقولهم هذا لا يخرج عن أشكال الحكم الرغائبي.

ومقابل قول العلمانية، نجد بعضهم يقول: (عموم الناس تريد الإسلاميين في الحكم)، ولو صدق القول، يتساءل الإنسان: نعم تريد الإسلاميين لكن أي إسلاميين؟ وأي فهم؟ وأي برنامج؟ وأي نموذج؟

وفي هذا المقام نسأل العلمانيين: هل تخافون من المعتدلين والحضاريين من الإسلاميين الذين يقدمون نموذجاً معاصراً ينبثق من تعاليم الإسلام ومنطلقاته السمحة؟ ويقال لنا بصفتنا إسلاميين: هل

فعلاً ما زال الناس يريدون حكم الإسلاميين، بعد النماذج المشوّهة التي قدمتها بعض التنظيمات التي تنتسب إلى الإسلام؟

وهكذا فالعقلية الرغائبية تسيطر على فهمنا للواقع.. ونستخدمها في خطابنا الحزبي والسجالي والأيديولوجي، بينما الأجدر أن نقدم مقاربة لفهم الواقع، أقول مقاربة فهم الواقع، وليس فهم الواقع تماماً وعلى حقيقته، لأن حقيقة الواقع بتفاصيلها، لا يعلمها إلا الله تعالى.

أدوات مقاربة الو اقع:

إن لمقاربة فهم الواقع أدوات تقربنا من الحقيقة بمقدار التزامنا بها، ونبتعد عن الحقيقة بمقدار تفريطنا بها، ومن هذه الأدوات:

وذلك عبر الأدوات العلمية لمقاربة فهم الواقع وهي: تحديد التعريفات أولاً. ثم إجراء الإحصاءات، وتسجيل المشاهدات، ثم إجراء الاستبيانات. في حال استخدامنا لها بشكل سليم يمكننا الوصول إلى نتائج قريبة من الموضوعية في الحكم على الواقع، وليست مطابقة للواقع كما ذكرنا.

أما فيما يتعلق بـ(ما نريد) وهي أهدافنا: فكثيراً ما نفكر في وسائلنا وأدواتنا ومقدرتنا ومواردنا، بل نفكر بطريقة (ما نرجوه) و(نتمنى وجوده في الواقع) من إصلاحات ومثالية..

إن التفكير الواقعي يخبرنا بقاعدته التي تقول: الرغبة خاضعة للقدرة. لكن أحلامنا غير الواقعية وتفكيرنا الرغائبي يخبرنا: أننا بمقدِرات بسيطة متواضعة نستطيع تغيير الكون، بل والسيطرة على المجتمعات وقيادة العالم، مع أنّ الواقع يخبرنا أن قدراتنا الفعلية عاجزة عن حماية وجودنا، فضلاً عن أن تكون قادرة على نقلنا خارج مجتمعاتنا، أو حملنا نحو أهدافنا العالمية.

الواقع أننا بحاجة إلى التفكير الواقعي عند تقييم حاضرنا، أو حين عملنا على إصلاح واقعنا، فليس الأمر بالرغبات والأمنيات فقط، قال الله تعالى: {لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ؛ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا * وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا} [النساء: ١٢٣، ١٢٤]

(١٥) التفكير العجول

المقصود بالتفكير العجول، التسرّع في إطلاق الأحكام.

لا شك أن الأناة في التفكير والتخطيط مطلوبة، والسرعة مع الإتقان في التنفيذ مطلوبة أيضاً، لكن كثيرا يتصفون بصفاة ثابتة.. "العجلة" في كل شيء، أو البطء في كل شيء.

إن التأني مطلوب في كل شيء، حتى في القبول والرفض، والانفتاح الذهني شيء جيد، والاحتفاء بالجيد الجديد دليل على مرونة ذهنية، لكن مع ملاحظة أنه على الإنسان ألا يتعجل في قبول الأفكار الجديدة أو البناء عليها، كما لا يتعجل بردّها كذلك، بل يبقيها تحت الاختبار والفحص والتدقيق من قبل المختصين، ليتم تقييم نسبة استحقاقها الرد أو القبول.

صفات أصحاب التفكير العجول:

١-غالباً المتعجل لا يسمع بعقله، بل بعواطفه، فما وافق مزاجه وهواه قبله، وما لا يوافق هواه رفضه.

٢- المتعجّل لا يسمع ما يقال، بل يسمع ما يُحب سماعه، ويكمل من عنده الجملة الناقصة، فيتعجّل بالجواب وفق تأويله الخاص للكلام، وكثيراً ما يُفاجأ بفهمه الخاطئ!

٣- المتعجّل لا يعطي نفسه فرصة قراءة ما بين السطور، وما خلف الكلام، ولا يتنبه إلى الإيماءات الحركية والجسدية التي يستعين بها المتكلم على إيصال أفكاره ومشاعره التي تضيق اللغة عن إيصالها.. فكثيراً ما يكون لسان الحال أبلغ وأصدق وأدقّ من لسان المقال.

٤- المتعجل لا يملك (عقلاً بارداً) كما يعبّر الإنكليز، فنجده عند الكوارث مرتبكاً حائراً غاضباً.

٥- المتعجل -غالباً- منغمس بالتنفيذ، لأنه عمليّ، مما يوقعه في الغفلة عن التخطيط أو التفكير في القادم، أو نتائج تصرفاته.

٦-المتعجل لا يصبر على اكتمال دورة الحياة، وحصول النتائج المرجوة، فكثير من الأمور لا يحلها إلا الزمن، وينبغي أن تأخذ وقتها كاملاً حتى تصل إلى نهايتها، بينما يريد المتعجل خطف النتائج، كالذي يزرع ولا يصبر على نضوج الثمر.

٧-يحب العمل ويستخف بالتخطيط والتفكير.. فيسرع مباشرة إلى العمل، ثم يتركه ويمله ويباشر عملاً آخر، ويظهر له أنه خطأ، وهكذا... مما يؤدي إلى ضعف إنتاجيته، وضعف تطويره، وكثيراً ما يمشي في طريق ثم يظهر له أنها مسدودة، لأنه لم يدرس الموضوع جيداً قبل الإقدام.

منذ القديم أدرك أسلافنا خطر العجلة، لما شهدوا من نتائجها التدميرية، فكانوا يقولون: (في التأنّي السلامة وفي العجلة الندامة). طبعاً هذا لا يعني البطء في كل شيء، فالتصرف المناسب في الوقت المناسب من الحكمة، وتفويت الفرص يضيّع الكثير من الخير.

لكن ينبغي أن نؤكد على ضرورة الدراسات والتفكير بالقرارات جيداً، قبل الانتقال إلى التنفيذ، أو البدء بأي مشروع.

زماننا أضحى معقداً، فمن الضروري قبل اتخاذ أي قرار دراسته جيداً، وإلا فسنقع بمشاكل كبيرة ومكلفة.. والتعجل نتائجه كارثية، لكن تبقى المشاكل الناتجة عن التعجل على مستوى الأفراد بسيطة جداً مقارنة بتعجّل المسؤولين عن مشاريع وشركات ومنظمات وجماعات وأحزاب ودول.

إن الأشخاص المتعجلين الذين يقودون جماعات كبيرة من الناس، يوقعون من خلفهم في نتائج كارثية، ويسوقون من يثق بهم إلى الفناء، وهم مسؤولون أمام الله وأمام الناس عن هذه النتائج.

قال الله تعالى: ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ [التوبة: ١٠٥].

(١٦) أبيض أسود

عقلية "أبيض أسود" هي عقلية حدية، عقلية أشخاص يهملون التفاصيل والتدرّجات، فعقلهم لا يرى إلا قطبَي النقيض، وذلك بتأثر من الثقافة الشفوية العفوية التي تهمل التفاصيل، لاعتمادها على الذاكرة الشفوية الميالة إلى التبسيط والاختزال والاختصار المخل، انسياقاً خلف الذاكرة البدائية التي تبسط لتحفظ دون تفكير أو اهتمام بالتفاصيل.

مثال ذلك: الجماعات التي تبالغ بتزكية رأيها ونقد الآخرين، مقابل من يتصف بالاعتدال في رأيه، فإنه مظنة الاتفاق مع الآخرين في آرائهم، أو عدم رفضها في الكثير من الأحيان، لأن قناعاته تمشي وفق قاعدة: رأينا صواب يحتمل الخطأ، ورأي المخالفين لنا خطأ يحتمل الصواب.

الخير المحض نادر، والشر المحض نادر، وغالب شؤون الحياة مختلطة تختلط فيها السلبيات والإيجابيات، يستوي في ذلك الجماعات والأشخاص والدول والشعوب والكتّاب والمؤلفين، حتى الأطعمة والآلات تختلط فيها الإيجابيات بالسلبيات.

وقد نبهنا القرآن الكريم إلى مسألة الشر الذي فيه خير، ففي حديثه عن الكبائر من المحرمات، حينما ذكر أم الخبائث الخمر، أثبت أن لها فوائد ثم حرمها، قال الله تعالى عن الخمر: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ، قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ﴾ [البقرة: ٢١٩] فأثبت الله تعالى وجود إثم كبير ومنافع للناس. لكن بعد حساب المصالح والمفاسد كانت النتيجة ﴿وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا﴾ فكانت النتيجة النهائية تحريم الخمر.

والشيطان أخبث مخلوق في هذه الدنيا، رغم ذلك وصفه النبي ﷺ بأنه قد يصدق فقال: ((صدقك وهو كذوب)).

إن هذه أمثلة لأشياء -رغم سوئها الواضح- قد يكون لها جوانب إيجابية، ومن أمثلة الأشياء النافعة التي قد تحوي ضرراً، أغلب الأدوية فإن لها مضاعفات جانبية، يعرفها المختصون.

لذلك جاء فقه الموازنات لجمع الشيء مع سياقه، أقصد به الظرف الزماني والمكاني والحالي، وقياس إيجابياته وسلبياته في هذا السياق، أي في هذه الحال، فلو كان في حد ذاته واضحاً لما قمنا بهذه الحسبة في كل مرة.

إن هذه العقلية التي نتكلم عنها عقلية حدية: إما أبيض أو أسود، شيطان أو ملاك، مقدس أو

مدنس، روح أو مادة، دنيا أو آخرة، مع أو ضد. وإن هذه العقلية كثيراً ما توقع أصحابها في التطرف، ضدي أو معي.

إن ما تحتاجه مجتمعاتنا اليوم أن ننتقل من عقلية "أبيض أسود" إلى عقلية (ما له وما عليه) أو عقلية (ما إيجابياته وما سلبياته). وهذا ما سيريح المجتمع والإنسان في تقييم الأشياء والأشخاص والأعداء والأصدقاء.. والمؤسسات والمشاريع والأفكار..

إن الواقع مثل هذه اللوحة:

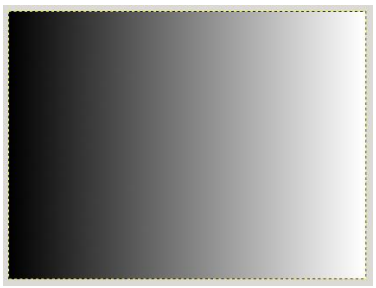

السواد الخالص فيها قليل، كما أن البياض الخالص قليل أيضاً، وأغلب الأشياء والمواقف والأشخاص؛ تجمع كلاً من الإيجابيات والسلبيات بدرجات مختلفة، والعبرة للغالب؛ فإن غلبت الإيجابيات حكمنا على الأشياء أو الأشخاص أو المجتمعات بالجودة والصلاح، وإن غلبت السلبيات حكمنا عليها بالسوء.

حتى الأحكام الشرعية تعلمنا أن الحياة ليست أبيض أو أسود فقط، وتنبهنا إلى خطأ الحدية المطلقة التي يتعامل بها الكثيرون اليوم، فالمنهيات فيها على درجات: أكبر الكبائر ثم الكبائر ثم المحرمات ثم المكروهات كراهة تحريمية ثم المكروهة تنزيهاً ثم خلاف الأَوْلَى، ثم لا بأس به، ثم المباح.. بحسب المفسدة كلما كبرت وعظمت اشتد الحكم عليها.

وكذلك المأمورات على درجات متفاوتة؛ الفرض العيني فالكفائي، فالواجب، ثم السنة المؤكدة فالمستحب.. وذلك كله بحسب المصلحة الدنيوية أو الأخروية التي يحققها الشيء، كلما كبرت المصلحة ارتقت درجة الحكم التي تطلق عليه.

التخلص من عقلية "أبيض أسود" تعطي صاحبها مرونة وواقعية وعدالة، وتبعده عن الوقوع في التناقض والتردّد، وتنقذه هو ومن يقودهم أو يثقون برأيه من الوقوع في الحرج وضيق النفس، أو الاتجاه نحو الغلو والتطرف.

أسأل الله أن يرزقنا الإنصاف والعدل مع من نحب ومن لا نحب.

(١٧) التفكير التبريري

للعقل قدرة عجيبة على التسويغ، فالطفل لا يعدم حجة في الاعتذار عن أفعاله الخاطئة، وأكبر المجرمين لا يعجز عن الإتيان بما يقوله مسوّغاً أفعاله في قاعة المحكمة، وبين زملائه وأهله وأصدقائه، أو أمام ضميره.

لذلك أكبر تحدٍ أمام المنظومات الأخلاقية في عالمنا اليوم هو التبرير والتأويل، وقد صدق من قال: "عندما يبدأ التأويل يبدأ التضليل"، سواء ذلك في تبرير ترك الواجبات، أو فعل المحظورات. يقول السارق: اضطررت إلى السرقة بسبب الحاجة، والآخرون لم يسرقوا لأنهم لم يقعوا في الضيق الذي وقعت فيه، ولو وقعوا فيما أنا فيه لسرقوا.

وكذلك القاتل يبرر لنفسه بالظلم الذي وقع عليه، أو يرمي باللائمة على من أغضبه فدفعه إلى القتل. ومثله الرجل الذي ضرب زوجته وآذاها، فإنه لم يفعل ذلك إلا بسبب تقصيرها، ومثلهم الكاذب والزاني والخائن... كلهم لن يعدموا تسويغاً لأفعالهم الشائنة أو تبريراً لها.

وبوساطة هذه العقلية تنتقل الأخلاق من قيم مطلقة تلزم الجميع، إلى معان نسبية يمكن اختراقها ومخالفتها.. مما يخفف من سلطانها وقوتها في توجيه السلوك.

مما ينبغي الوقوف عليه هنا أن التبرير كثيراً ما ينتشر عند الضعفاء، وفي المجتمعات المتخلفة، حيث يميل الجميع نحو تبرير أخطاء النفس، ورمي الذنب على الآخرين، وتراشق الاتهامات في تحمل مسؤولية الخطأ، أو في التقصير.

التفكير التبريري؛ يخبرنا بشكل واضح عن شعور أصحابه بالدونية واحتقار الذات في موقف ما، ولو لم يشعروا أنهم يفضحون دواخلهم، والناس تمارسه اليوم بكثرة للتهرب من المسؤولية في موقف ما.

إن أشكال التفكير التبريري كثيرة في واقعنا على مستوى الفرد والجماعة، حتى لو لم نشعر بذلك وتظهر في عبارات مختلفة منها:

- لماذا فلسطين محتلة من قبل حفنة من اليهود؟ لأن الغرب يدعمهم.

- لماذا نحن متخلفون؟ لأن الغرب نهب خيراتنا.

- لماذا نحن متفرقون؟ لأن الغرب لا يريدنا أن نتحد!

صحيح أن هذه أسباب، لكنها ليست السبب الأصلي، وليست السبب الحقيقي أو الوحيد، فكل ضعف وكل خسارة لها أسباب داخلية، وأسباب خارجية، والمعوّل عليه هو الأسباب الداخلية، إذ لولا الأسباب والعوامل الداخلية من أخطاء وتقصير وفساد لما نجحت الأسباب والعوامل الخارجية.

الأمم الموفقة الصادقة في إرادة النهوض تعالج الأسباب الداخلية التي تحت سيطرتها وقدرتها وإرادتها، بينما الأمم المتواكلة تعتذر دائماً بالأسباب الخارجية.. حتى تبرئ ساحتها من التقصير.. وتستمر بالفساد والتخلف..

حتى على مستوى الأفراد ثمة شخصان يعيشان طروفاً صعبة متماثلة، أحدهما تغلب على الظروف الصعبة ونجح، فهو يذكر الظروف كصعوبات استطاع التغلب عليها، وتحقيق النجاح رغما عنها، بينما الفاشل يذكر الظروف ذاتها أسباباً لفشله وإخفاقه.

القرآن الكريم يرشدنا إلى منطق تحمّل المسؤولية وعدم إلقائها على غيرنا، يقول ربنا سبحانه: ﴿أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا؟ قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ، إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ١٦٥]، ويقول الله سبحانه: ﴿وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا، إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ [آل عمران: ١٢٠].

(١٨) الوسطية الخادعة

لا شك أنّ (الصلح خير) بين متخاصمين التبست القضية بينهما، وتوزّع الحقّ بينهما. لكن؛ ليس (الحل بالوسط) دائماً هو الصواب...

سأذكر هنا أربع صور يكون فيها الحل الوسط تلاعباً، لو اخترنا القضية فيه:

١- قد يكون أحد الأطراف على الصواب الواضح، فيكون الحل الوسط والمصالحة بينه وبين المقابل الخالي من الصواب خطأً وهضماً للحق وصاحبه.

٢- قد يكون الحل الرابع هو الصواب، وليس الأول أو الثاني ولا الوسط، فبعض الناس يمارس "التأطير"، فيحصرنا ضمن حلين أو ثلاثة أو أكثر أو أقل.. مع وجود حلول أخرى غير هذه الحلول الثلاثة: اليمين واليسار والوسط، وبالتالي يدفعك بحكم التأطير إلى الحل الوسط من الآراء التي عرضها في القضية.. رغم وجود رأي رابع لم يتم عرضه أصلاً، وهو أقرب إلى الصواب، أو فيه الصواب على التحقيق.

٣- ومنهم من يجمع شيئاً مكوناً من الطرفين، ويقول: هو الوسط: كأن يجمع سيئات الطرفين، ويدّعي أنه الوسط، وذلك في مثل مسألة الحضارة الشرقية والغربية، هل نستفيد من الشرق أم من الغرب، وطريق أيهما نسلك؟ فيقول بعضهم: نقف موقفاً وسطاً، ونستفيد من الطرفين، ثم يختار أسوأ ما عند الطرفين من تعصب وعنصرية وإقصاء واستعلاء، ويقول: هذا هو الوسط، والواقع أن الحقيقة في وسط آخر، وهو أن نجمع بين إيجابيات الطرفين، فنستفيد من الطرفين بما يتوافق مع مبادئنا وديننا، فنأخذ أفضل ما عند الطرفين.

٤- أحياناً يتم التلاعب بالطرفين لدفعهما نحو الوسط المناسب الذي تم تحديده مسبقاً، كأن يكون هناك خمس اتجاهات فهو يختار ثلاثة تناسب الوسط الذي يريده، كالتالي:

الفريق الأول: يجب مقاطعة هذا الأمر.

الفريق الثاني: الأفضل المقاطعة.

الفريق الثالث: يمكننا المقاطعة، ويمكننا ألا نقاطع.

الفريق الرابع: المقاطعة مضرة، الأفضل ألا نقاطع.

الفريق الخامس: المقاطعة مضرة جداً، يجب ألا نفكر فيها أصلاً.

هو يختار من هذه الخمسة أقوالاً ثلاثة ليختار الوسط منها، فإذا كان رأيه (الأفضل ألا نقاطع) يختار القولين حوله، ويهمل الباقي، "يجب ألا نقاطع" و "يمكننا ألا نقاطع" والوسط بينهما هو الرأي الذي يفضله هو.. ولو كان رأيه: الأفضل أن نقاطع فيختار ثلاثة أخرى وسطها هو رأيه.. فيختار (يجب أن نقاطع - ويمكننا أن نقاطع - ويمكننا ألا نقاطع) فيكون الوسط هو رأيه المفضّل، ويهمل بقية الأقوال..

(١٩) التفكير الانتقائي

عند تراكم المعلومات وتضاربها، يعد الاختيار والترجيح والانتقاء أمراً طبيعياً، لكن ينبغي أن يكون ذلك وفق العدل، وليس وفق الهوى والرغبة.. فالتفكير الانتقائي المذموم هو القائم على الهوى والعصبية، فإذا كان الشخص أو الموقف المراد تقييمه (من جماعتنا) فإن صاحب التفكير الانتقائي المنحاز يقتصر على مزاياه الجيدة، أما إن كان الشخص أو الموقف المراد تقييمه (من عدونا) فإن الانتقائي يقتصر على عيوبه.

ولنأخذ مثالاً على ذلك: الموقف من تاريخنا وواقعنا، مقابل تاريخ غيرنا وواقعه، فإذا تكلمنا عن واقعنا أو تاريخنا استدعينا أفضل وأنصع الصفحات عندنا، وعندما نتكلم عن واقع غيرنا أو تاريخه نستحضر أبشع الصور،وأسوأ النماذج، وهذا ما يمكن تسميته بـ (منهج النحلة)التي تبحث عن الرحيق، أو منهج الذبابة التي تبحث عن القذر[٣٣].

وقديماً عبر الشاعر عن هذا الطبع في الآدميين الذين لم يهذبوا أحكامهم فقال:

وعَينُ الرِضا عَن كُلِّ عَيبٍ كَليلَةٌ ** وَلَكِنَّ عَينَ السُخطِ تُبدي المَساوِيا

إن الممدوح في هذه المواقف عين الصدق والإنصاف والعدل، وهذا ليس بالهين على عموم الناس، ولكنه هين على من وفقه الله تعالى.

لذلك قال علماؤنا: (الإنصاف عزيز).. أي أنه صعب وقليل.

والتوجيه القرآني واضح في هذه القضية، قال الله تعالى: (﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا، اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾ [المائدة: ٨]. إن التقوى والأمانة العلمية، والقيام بالشهادة لله، والموضوعية تقتضي الاتصاف بالصدق والعدل والإنصاف مع العدو والصديق على السواء.

(٣٣) تكلمت عن هذه النقطة بتوسع في حلقة بعنوان: (واقع بواقع)، في برنامج: بصراحة. وهو متوفر على اليوتيوب وسأنشر تفريغه النصي قريباً إن شاء الله تعالى.

(٢٠) التفكير الماضوي والحداثي

عند غياب المنهج العلمي في اعتماد الأقوال والأفكار والاجتهادات، يتم اللجوء إلى الترجيح عبر مرجحات غير علمية، فمنهم من يقدس الحديث والجديد، ومنهم من يلجأ إلى الترجيح بحسب القدم، والحقيقة أن الزمان لا يقدس الأفكار، فلا ميزة لمتقدم لقدمه، ولا لمتأخر لجدته، وإنما المعول عليه صواب القول وعلميّته ومنهجيّته ومناسبته للواقع.

إن الترجيح باعتبار التقدم في الزمن هو ما يسمى بـ(سطوة القديم): حتى إنهم ليقولون (الله على أيام زمان).. (أيام الزمن الجميل)، والسبب في ذلك أن الذكريات السعيدة تبقى في الذاكرة وما فيها من جمال، أما الآلام فتمضي ويطويها النسيان.

وإن اعتبار الماضي وتقديسه ليس حكراً على شعوبنا الشرقية فحسب، بل هو مبدأ شائع في الشرق والغرب، حتى الإنجليز فإنهم يقولون: (Old is gold)، أي (الماضي من ذهب) أو (القديم ثمين). رغم أنّ الواقع يخبرنا أنّ الناس في عصرنا أكثر علماً ووعياً وبُعداً عن الخرافات والأوهام، فالعلم في انتشار والأمية في تراجع.

وقد شنّ القرآن الكريم حملة قوية ضد مبدأ الآبائية والتقليد الأعمى، وعاب على المشركين احتجاجهم لباطلهم بأسلافهم، قال الله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ، وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ﴾، وعندما احتج إبراهيم عليه السلام على مشركي قومه بالحق والمنطق، احتجوا عليه بمنطق الآبائية، قال الله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ: مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ؟ (٥٢) قَالُوا: وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ (٥٣) قَالَ: لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [الأنبياء: ٥٢-٥٤].

من المسلم به أن العلوم تتطور تراكمياً، يبني فيها اللاحق على السابق، لكن هناك هيام بحب القديم. كما في كتب الطب الشعبي والأعشاب القديمة، فرغم قدمها وبطلان كثير مما فيها ما زالت تُطبع ويتم تداولها، وكما هو الواقع في بعض الأمثال الشعبية وبعض العادات والتقاليد الخاطئة والمضرّة.. فإنها ما زالت حاضرة في حياتنا بقوة.

للتخفيف من هذه الهالات التي صنعتها الأيام حول بعض الأشخاص والآراء والمذاهب، من المفيد الرجوع إلى قراءة تاريخ نشأتها وما تعرّضت له من نقد ممن هم أفضل منّا وأعلم، وربما استمر النقد الشديد

لمِائة سنة أو مِائَتي سنة.. ثم جاء زمن تمّ إضفاء هالات التقديس والتعظيم على ما كان ظنياً، ولا يعدو أن يكون اجتهاداً ضمن اجتهادات أخرى مكافِئة له أو راجحة عليه، في كثير من الأحيان.

إن بعض ما نعده فوق النقد في عصرنا، بقي قروناً يتعرض للنقد.. بل للرفض في كثير من الأحيان،

طبعاً هنا لا نتكلم عن كتاب الله، ولا عن صحيح سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا نتكلم عن القيم الكبرى والمبادئ وقطعيات الدين.. بل نتكلم عن الاجتهادات والآراء الظنية.

لا يمكن أن يفهم مما سبق أن الحق يقتضي الاستغناء عن القديم، إن القديم أساس الحاضر، ولولا القديم ما كان الجديد. وكما أن ثمة تياراً يقدس القديم، ففي مقابله تيار آخر يقدس الجديد، ويدنّس القديم، وكلاهما تطرّف مرفوض.

إن النهج العلمي يقتضي تقدير القديم وتثمينه والبناء عليه، والقديم أنواع، منه ما كان صالحاً لزمان من سبقنا، ويصلح لزماننا أيضاً، ومنه ما كان صالحاً لزمانهم، ولا يصلح لزماننا، ومنه ما لم يكن صالحاً لهم، ولن يكون صالحاً لنا ولا لغيرنا، وهذا الأخير يجب تجاوزه قولاً واحداً.

إن إطلاق القول بالقبول أو الرد دون تفصيل، ليس موقفاً علمياً ناضجاً، فلا يوجد أمة محترمة أو عاقلة تتجاوز قديمها، وتهيل عليه التراب كله، بصالحه وطالحه، فكثير من القديم ما زال صالحاً، كما أنّ في الجديد الصالح،وفي القديم ما هو مرفوض يجب تجاوزه، كما أن في الحديث مثل ذلك، فالقديم والجديد يبقى مادة تحت الفحص والنقد والبناء والتطوير والقبول والرد، ولا يمكن قبوله دفعة واحدة والجمود عنده.

يمكن أن يقال: إن القديم مشروع قيد التطوير، وليس مشروعاً ناجزاً كاملاً، ومثله الجديد، والكمال لله تعالى وحده، قال ربنا سبحانه موجهاً نبيه وإيانا في شخصه: ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤]. -صدق الله العظيم.

(٢١) عقلية الندرة

(عقلية الندرة) عقلية ضيقة بخيلة أنانية، تؤمن أنّ الموارد قليلة، والمناصب محدودة، والفرص نادرة.. لكن الحقيقة أن الكون أرحب من "ضِيق النفس" التي يحياها أصحاب عقلية الندرة.

ينبغي لنا أن نتعامل (بعقلية الوفرة)، وهي عقلية مكتسبة غالباً، وتحتاج إلى تنمية، فالنفس بطبعها شحيحة ضنينة ﴿وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ﴾ [النساء: ١٢٨]، ومما ينبغي للإنسان أن يخالف نفسَه ويحذر إتْباعها هواها السيئ، بل علينا أن نخالفها، ونعمل على أن تتذوّق لذة العطاء المعنوي؛ من نصيحة وإرشاد، وبذل الخبرة والعطاء الحسي المادي المعروف.

علينا تنمية مبدأ: (رابح – رابح) أي: أنت تربح، وتحرص على أن يربح من يتعامل معك كذلك.

بعضنا يفكر بعقلية: (خاسر - رابح) وهي: عقلية تضحية، حيث يخسر الشخص ويضحي ليربح من يتعامل معه، وهو وإن ضحى فإنه يشعر نتيجة لخسارته بالظلم، وأن حقه مهضوم، فلا يستطيع الاستمرار والتكرار بأريحية.

في مقابل ما سبق، أغلب الناس يفكرون بعقلية: (رابح – خاسر) وهي: عقلية أنانية، يريد الشخص فيها الربح لنفسه، والخسارة لغيره، عن طريق الاستغلال. فيحرص على أن يأخذ حقه كاملاً بل زائداً، ويحاول الإنقاص من حقوق الآخرين بقدر ما يستطيع، ويَعُدّ ذلك دهاء وذكاء وشطارة.

إن هذه العقلية (رابح - خاسر) تجعل صاحبها غير قادر على الاستمرار، ولو استمر فإنه لا يتوسّع، لأنه لا يبني سمعة طيبة لا لنفسه ولا لمشروعه، فمن تعامل معه لن يعيدها وسيحذر منه ويحذّر غيره.

وهناك من يتعامل ببعض الظروف بعقلية: (خاسر – خاسر) وهي عقلية انتقامية، حيث يخسر صاحبها ويخسّر معه الآخرين، على مبدأ "عليّ وعلى أعدائي"، وهذه العقلية واضحة الخسران، لأن صاحبها يبغي الخسارة لنفسه ولمن يتعامل معه على السواء[٣٤].

حتى الخاسر ينبغي ألا يتمنى لغيره الخسارة، حتى يساعده غيره، ويحافظ على صلات جيدة بمن حوله، ستكون مكسباً وذخراً له ولمن يتعامل معهم.

---

(٣٤) ينظر: كتاب العادات السبع للناجحين، لـ: ستفن كوفي.

عقلية الوفرة تقول: عندما نعيش في أمة ناهضة مليئة بالمميزين، سنصبح أكثر تميّزاً.. والخير سيعمّ الجميع.

نحن بحاجة إلى دعاة وعلماء ومجتهدين ومفكرين ومصلحين، في كل مدينة، بل في كل بيت، حتى يتشاوروا ويتعاونوا ويؤازر بعضُهم بعضاً..

مشروع النهوض بأمتنا الإسلامية، والتنمية في أوطاننا، ونشر الوعي هو مشروع كبير يحتاج الجهود كلّها؛ أفراداً وجماعات ومنظمات، والموارد كثيرة -بفضل الله تعالى- بل كثير من الموارد المتاحة لم يتم استثمارها بعد كما ينبغي.

يجب أن يكون شعارنا: "رحم الله كلّ من ساهم بشطر كلمة في مشروع نهضة الأمة"، لا أن نشتكي من قلة الواعين، ونحسد المصلحين، ونغار منهم! فحتى التفكير (المصلحي) يقول: كلما انتشرت الفكرة قويت وكثرت مشاريعها ومكاسبها.

يبدو أن المشكلة في أن بعضهم يحب أن يكون على رأس الهرم وحيداً، يضيق صدرُه ببروز غيره! يحب التميّز لنفسه فقط!.

إن الشعور بحب التفرد المؤسَّس على (عقلية الندرة) ينبغي الانتباه له، ومقاومته ومخالفته، وإقناع النفس بخطئه وبطلان منطلقه، فكثير من نوازع النفس السيئة وشهواتها ينبغي مجاهدتها ومخالفتها، ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا (٩) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ [الشمس: ٩-١٠]، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني. اللهم آتِ نفوسنا تقواها وزكّها أنت خير من زكّاها.

(٢٢) التفكير النمطي عدوّ الإبداع

التفكير النمطي هو التفكير التقليدي الذي يغتال الإبداع وينفر منه.

العقلية النمطية تعتقد أنه ليس بالإمكان أبدع مما كان، ولو كان خيراً لسبقونا إليه، بينما العقلية الإبداعية تعتقد وجود شيء أحسن دائماً، وأنّ كل شيء قابلٌ للتحسين.

التفكير النمطي يقتل الفكرة في مهدها، قبل أن تنمو وتنضج ويقوى عودها، ومما ينبغي علينا أن نبحث عن الأفكار الجديدة لنعطيها حقها من التأمل والتفكير، لعل فيها نجاتنا وحلاً لإشكالاتنا، وبعد البحث والتأمل وترك فرصة كافية للفكرة الجديدة لتطرح ما عندها يمكن أن نرفضها إن وجدناها ضعيفة أو غير مناسبة، لكن ليس من الحكمة التعجل بالرد، وليس من الإنصاف وأد الأفكار في مهدها.

كثيراً ما تبدو الأفكار الإبداعية أول وهلة مجنونة وغير منطقية، بل مستحيلة، ثم تتحوّل إلى واقع على أيدي الطامحين.

من عادة العقل أن يبني نماذج ومنظومات فكرية وأنساقاً وقواعد، ويحاول تأطير التفكير ضمن هذه المساقات والقواعد، ونتيجة لذلك -غالباً - تخرج النتائج السابقة نفسها، وبالتالي يحارب ويستنكر ما لا يتطابق مع الأنماط المسبقة التي يعرفها ويألفها.

ومما يجب علينا مقاومة هذه النزعة الطاردة للأفكار غير المألوفة وغير المعروفة لنا، وإعطاء أنفسنا فرصة للتفكير بالأفكار الجديدة، حتى لو احتوت جزءاً من المخاطرة والأحلام.

التفكير الإبداعي هو (التفكير خارج الصندوق) -كما يقال- أي خارج المعروف المألوف.

الفكر الإبداعي هو (فكر التجربة) أي: تجريب توليد أفكار جديدة، واختبار هذه الأفكار، لذلك لا يمكننا معرفة نتائج هذه الأفكار والتجارب قبل اختبارها.. وبعد الاختبار كثيراً ما تكون النتائج مضحكة وكأننا مهرجون!

التفكير الإبداعي عادة مظلومة، وينبغي لنا إعطاء الوقت والحماسة والتشجيع للتفكير خارج الصندوق، فالمبدعون أناس يمنحون وقتاً جيداً للتفكير الإبداعي.

هناك ظاهرة غريبة تظهر عند بعض السجناء وهي (إلف السجن)، أي الاعتياد على حياة السجن، طبعاً هذا في الدول المحترمة التي فيها سجون إنسانية، فبعض السجناء بعد فترة طويلة يعتاد حياة السجن ويرفض الخروج، بل قد يرتكب جرائم أو مخالفات.. ترجعه إلى السجن، ولو صبر قليلاً لاعتاد الحياة الجديدة خارج السجن، ورفض العودة إلى السجن..

إن سجن الأبدان لا يختلف كثيراً عن سجن المألوفات والأفكار التي اعتدنا عليها، نخشى الخروج منها أو تبديلها أو تجديدها.

كثيراً ما يتم تحفيز التفكير الإبداعي بمثير أو فكرة قد تبدو غريبة في أول الأمر، ثم يتم تنميتها وتعديلها، إلى أن تغدو فكرة ناضجة صالحة للاستخدام، ومفيدة ناجحة.

أحيانا يكون الإبداع أو الاختراع عبارة عن خطأ يكشف شيئاً مهماً ومثيراً ومفيداً، فعلينا أن نرتكب نحن هذه الأخطاء بتفكيرنا -إذا صح التعبير- ونخرج عن القواعد حتى ننتج أفكاراً مبدعة، وليس هذا ضرباً من الجنون كما قد يحسب بعضنا، بل هو مبدأ إسلامي، ولهذا لم يثب الإسلام على خطأ إلا على الاجتهاد الخاطئ، تنفيراً من الكسل وتحفيزاً للفكر للاجتهاد والعمل، لقوله صلى الله عليه وسلم: "إذا حكم الحاكمُ فاجتهد فأصاب فله أجران، وإذا حكم فاجتهد فأخطأ فله أجرٌ واحد"، رواه البخاري ومسلم.

لذلك في جلسات العصف الذهني، وتوليد الأفكار الجديدة، وإيجاد الحلول للمشكلات، يمنع الاستهزاء أو استبعاد الأفكار التي يراها بعضنا غريبة أو غير منطقية أو غير واقعية.

المسائل الحسابية يُكتفى فيها بأول حل، ولا داعي لإنفاق وقت إضافي للتفكير في حلول أخرى، بينما مسائل الحياة ومشاكلها تحتاج عدة حلول، بعضها أفضل من بعض، فليس الجواب الأول هو الأفضل، وليس هدفنا أن نحل المشكلة فقط، بل هدفنا التطوير والتحسين ووضع عدة طرق للحل.

مبدأ البحث عن البدائل هو أساس التفكير الإبداعي، فدائماً هناك بدائل، وبعضها قد يكون أفضل من الموجود، فالتحسين والتطوير باب مفتوح.. والكريم الفتّاح سبحانه وتعالى يفتح دائماً لعباده ويتفضل عليهم بالمزيد: ﴿نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ، وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٧٦].

التقسيم المنطقي للخيارات لا يحصر الحياة في ثلاثة فقط: (أفعل- لا أفعل- أفعل شيئاً آخر)، فالفعل في الواقع له خيارات كثيرة، تشمل وقت الفعل، ومكان الفعل، والأشخاص القائمين بالفعل، وطريقة الفعل، والأحوال المجاورة والمصاحبة للفعل.. وهكذا.. فالتفكير الإبداعي ليس له حدود، والحلول متنوعة.

لقد شنّ الإسلام حملة شعواء على التفكير التقليدي الأعمى للآباء والكبراء، وعاب الطاعة العمياء للسادة والأحبار والرهبان، وحارب الكهنوت. وقد قيّد القرآن الكريم إتباع الممدوح بكونه على بصيرة، قال الله تعالى: {قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ، أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي، وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ} [يوسف: ١٠٨].

وقد أكد القرآن الكريم أهمية المقارنة بين ما ورثناه عن آبائنا، وبين ما جاءنا به الرُسل، لاكتشاف الأهدى والأعلم والأحق بالاتباع، وجعل لنا من إبراهيم عليه السلام مثلاً نقتدي به في كيفية التبرؤ من الباطل، حتى ولو كان موروثاً، قال الله تعالى: {بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ (٢٢) وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ (٢٣) قَالَ: أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ؟ قَالُوا: إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ (٢٤) فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (٢٥) وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ: إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ (٢٦) إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ (٢٧) وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٢٨) بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُبِينٌ } [الزخرف: ٢٣ - ٢٩]

ويصعّد القرآن الكريم اللهجة في تسفيه أحلام الآباء الكافرين هدماً لهذه الصنمية السيئة، فيقول سبحانه: {وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ} [البقرة: ١٧٠]

{وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ} [المائدة: ١٠٤]

{قَالُوا: وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ (٥٣) قَالَ: لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ} [الأنبياء: ٥٣، ٥٤]

ويبين سبحانه وتعالى حال المقلدين وندمهم الشديد على طاعة السادة والكبراء يوم القيامة، فيقول سبحانه: {يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ: يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَا (٦٦) وَقَالُوا: رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا (٦٧) رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا (٦٨)} [الأحزاب: ٦٦ - ٦٨]

ويبين سبحانه وتعالى أن التقليد الأعمى للأحبار والرهبان هو بمثابة التقديس والتأليه لمخلوق: {وَقَالَتِ الْيَهُودُ: عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ. وَقَالَتِ النَّصَارَى: الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ. ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ

كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ (٣٠) اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٣١)} [التوبة: ٣٠، ٣١].

هل الإبداع موهبة أو مهارة؟

قبل نهاية هذا الموضوع نجيب عن هذا السؤال: هل الإبداع موهبة أو مهارة يمكن تنميتها؟

الحقيقة أن الإبداع موهبة وكل إنسان يملكها بنسبة ما، لكن الذي يهملها يضعفها.

ومن يملك نسبة بسيطة من موهبة التفكير الإبداعي، قد يتفوق على صاحب الموهبة الكبيرة إذا تدرّب ونمّى موهبته، بينما صاحب الموهبة الإبداعية الكبيرة قد تضمر عنده هذه الموهبة، إذا أهملها، بخاصة إذا عاش في بيئة نمطية تحارب الإبداع وتقمعه، واستسلم لها.

فالتفكير الإبداعي مثل كل مهارة تنمو بالتدريب والتثقيف، وتضعف بالإهمال.

أسأل الله أن يفتح بصائرنا ويلهمنا رشدنا، ويرزقنا بيئات حاضنة للإبداع ومشجّعة له..

(٢٣) التفكير المبعثر

تنظيم موضوع التفكير وإدارته، وتحديد محل الخلاف، مهم جداً في أثناء التفكير الفردي، وعند النقاش الثنائي أو الجماعي، وعند العصف الذهني، وله دور كبير في إبعادنا عن مخاطر التفكير العبثي.

من المفيد جداً تنظيم موضوعات التفكير عند العصف الذهني؛ بتحديد نقاط النقاش ومحاوره، وترتيبها وضبط التفكير فيها، وضبط المتناقشين بها.

كما أنّ للكتابة دوراً كبيراً في تنظيم الأفكار وإنضاجها، فالكتابة تظهر الأفكار على حقيقتها دون اغترار باكتمال ما لم يكتمل منها، فيما لو بقيت الفكرة بالرؤوس، أو تمّ تداولها شفوياً فقط.

أكثر الناس يركزون على قوله تعالى: ﴿اقْرَأْ﴾ ولا ينتبهون لقوله تعالى: ﴿الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾

في كثير من الأحيان نحتاج إلى تحليل المشكلة وتقسيمها إلى أجزاء، حتى نستطيع الإحاطة بها، ومناقشة كل جزء منها على حِدة، وهذا التقسيم يكون متعسراً إذا اقتصرنا على النقاش الشفوي ولم نكتب شيئاً، بل يكون مستحيلاً في المواضيع الطويلة، أو كثيرة التفرعات.

إذن يلزمنا جمع نتائج التفكير وتنظيمها.. وعدم تركها تتبّخر بعد نهاية جلسة التفكير، سواء كانت جلسة على انفراد؛ بين الشخص ونفسه، أو كانت جلسة عصف ذهني جماعي.

من المهم في تنظيم التفكير عدم سكب الأفكار كلها دفعة واحدة، وجعلها كومة واحدة، بل تصنيفها وترتيبها، بغية تنقيحها وإنضاجها.

من الأمور المهمة للبعد عن التفكير العبثي، تحدي التفكير وضبطه، بتحديد الأسئلة المراد الإجابة عنها، مثل الأسئلة الستة المعروفة:

١-ما الشيء؟ للسؤال عن (الماهية)

٢-لماذا؟ للسؤال عن (الأهمية والتعليل)

٣-من؟ للسؤال عن (الفاعل)

٤-٥-متى وأين؟ للسؤال عن (الزمان والمكان)

٦-كيف؟ للسؤال عن الكيفية وعن (الأدوات والوسائل والأساليب)

أخيراً دعونا نذكر بعض الخطوات المقترحة لتنظيم جلسة عصف ذهني فردي أو جماعي:

أولاً: تحديد المطلوب بالضبط، وجمع المعلومات المتاحة حوله.

ثانياً: استخدام التفكير الإبداعي لحل الإشكال، وعرض البدائل المتاحة أو الممكنة كلها.

ثالثاً: نبلور تلك الأفكار وننضجها ونذكر ميزاتها وفوائدها.

رابعاً: نعرض الأفكار التي استقر فكرنا عليها للنقد، عبر معرفة احتياجاتنا واحتياجات أصحاب المشكلة وقدراتهم وواقعهم.

خامساً: نختبر مشاعرنا وأفكارنا تجاه الحل الأخير الذي وصلنا إليه: هل نحن متحمّسون له؟ وما هي مشاعرنا نحوه؟! ونناقش أسباب تلك المشاعر والأحاسيس ومسوغاتها.

سادساً: ندون الخلاصات والقرارات التي تم تبنيها وإقرارها، مع ما يحيط بها من أفكار قريبة طرحت في أثناء النقاش.

ونهاية الرتابة تحمي الفكر من العبثية، والعبثية في الفكر تعني العبثية في السلوك، والفشل في النتائج، فلا غنى عن التخطيط للنجاح، فالقدر مع الذي يأخذون بأسباب النجاح، وليس مع الذين يتجاهلون الأسباب التي جعلها الله مقدمة له (اعْقِلْها وتوكّل).

(٢٤) التفكير التآمري

حين تتدخل الدول الاستعمارية في شؤون الدول الضعيفة، تتدخل تحت ذرائع شتى: (التخلص من طاغية ظالم، تحرير أقلية مهضومة الحقوق، تنمية بلد متخلّف..) إنها لن تعدم حجة تتذرّع بها، والحل ليس بأن نلقي باللائمة على أعدائنا، فسيبقى التدافع بين الحق والباطل قائماً حتى قيام الساعة.. وهذا جزء من الابتلاء، ومن حقيقة الحياة الدنيا.

حبّ التملك والجَمْع والاستكثار والتوسّع من طبيعة البشر، وهذا سيكون -بشكل أو بآخر- على حساب (الغير)، مما يولّد المكائد والاعتداءات والمدافعة والمغالبة.

وللإحساس بالمنافسة والصراع وجه إيجابي، يكمن في الدفع نحو تنمية روح المنافسة والمقاومة، وإلا ترهّل الإنسان وكسل، وترهلت الجماعات والدول وكسلت.

إن هذا القانون الذي تقوم عليه الحياة يدفعنا إلى الحذر من البقاء دولاً ضعيفة مستكينة، تغري الأمم القوية باستغلالها ونهبها، وهذا ما سماه مالك بن نبي رحمه الله: (القابلية للاستعمار).

إذا كان وجود مكائد للأعداء هو الأصل الذي تقوم عليه طبيعة المنافسة في هذه الحياة، فأين المصيبة؟ إن المصيبة كل المصيبة تكمن في الاتكاء على معرفة هذه المكائد لتسويغ فشلنا وضعفنا.

إننا لا نستطيع منع الآخرين من التفكير بمصالحه، وكثير من تلك المصالح ضدّ مصالحنا، ومنها ما لا يتحقق إلا إذا تمّ استغلالنا، ولكننا نستطيع منع مكائده، وذلك عبر إصلاح ضعفنا الذاتي، بدلاً من قضاء الوقت في التبرير عبر إلقاء اللائمة على المؤامرة.

والمعادلة الصحيحة هنا على الشكل التالي: الاستخفاف بالمؤامرات غلط، لأنه سيؤدي إلى تراخينا، وتهويل المؤامرات غلط كذلك.. لأنه سيؤدي بنا إلى اليأس.

من السبب في ضعفنا؟

في الحديث عن ضعفنا الداخلي، وأثر العدو في تعميق ضعفنا، يبرز السؤال التالي:

- هل ضعفنا بسبب تسلّط أعدائنا علينا؟، أم تسلط أعدائنا كان بسبب ضعفنا؟

الجواب: الذين ينوون النهوض والتخلّص من الضعف وتسلّط الآخرين عليهم: يتهمون أنفسَهم ويقوُّونها، ويقولون: تسلُّط أعدائنا بسبب ضعفنا.. سنتحدى مكائدهم ومؤامراتهم، ونأخذ بأسباب القوة، ونتغلب عليهم بعون الله.

أما أصحاب الإرادة الضعيفة ممن يريد مسكنّات ومخدّرات، فيقولون: كل ما بنا من ضعف بسبب مكائد أعدائنا.. ويستسلمون للمؤامرة، ويكتفون بشتمها، أو يتفاخرون بأنهم اكتشفوها، دون أن يقوموا بأي خطوة عملية.

إن وجود المؤامرات - بمعنى الأعمال المنظّمة والخطط والدسائس والمكائد - لا تكاد تجد أحداً ينكره، لكن المرفوض هو ما يسمى بـ (نظرية المؤامرة)، وهي اعتقاد وجود قوة خفية تتحكّم بالعالم، فكل شيء يحدث في العالم من تخطيطها وتدبيرها، وما نحن والدول والأحزاب والمنظمات الصغيرة والكبيرة ورجال الأعمال سوى دُمى يلعبون بها، وواجهات تمثل هذه القوة الخفية.

إن هذا المعنى الخطير للمؤامرة مرفوض، بل قد يقع ضمن الشرك بالله تعالى، وله أثر كبير في إشاعة اليأس والقنوط بين الناس، ودفعهم إلى القبول بالظلم والفساد لأنهم لا يستطيعون دفعه.

الأقوياء يذكرون المؤامرات كتحديات وصعوبات، ويفكرون كيف يواجهونها ويتغلّبون عليها، أما الفاشلون فيذكرون المؤامرات كأسباب يعلقون عليها فشلَهم.

الفاشلون يحلمون بملعب خالٍ من الفريق المضاد لهم، وخالٍ من الخطط والتحديات، فمرمى الخصم يجب أن يكون فارغاً ينتظر تسجيلهم الأهداف، ويظنون أنّ طريق الصدارة مفروشٌ بالورود والزهور، بينما الناجحون يعرفون أنّ طريق النجاح مليء بالأشواك والصعوبات والتحديات، وإلا لنجحت كلّ الدول والأمم، بأحلامها.

بعضنا يجعل أمتنا ضحية المؤامرات من زمن ابن سبأ إلى يومنا هذا، وإلى قيام الساعة، وفي الوقت ذاته يقول: الأمة بخير، وهي مؤهّلة لقيادة العالم لولا المؤامرات!

فكل نكساتنا وراءها مكائد غيرنا، ونحن برآء وملائكة، ولم نقصر أبداً في شيء، وما وقع في التاريخ من مآس، ويقع حالياً، وسيقع في المستقبل، كله بسبب مكائد أعدائنا، ولم يقصر أجدادنا في شيء، ولم نقصر نحن في شيء.

إن هذا التصور فيه آفتان كما ذكر العلامة يوسف القرضاوي في كتابه (أولويات الحركة الإسلامية في المرحلة المقبلة):

الآفة الأولى: الجبرية، والآفة الثانية: الطهورية.

الجبرية: تعني أنّ التفكير المؤامراتي يوقعنا في الاعتقاد الجبري، أي يجعلنا نستسلم (مجبرين) للأحداث، فنحن أحجارٌ على رُقعة الشطرنج، والقوى العالميةُ أو الماسونية قد خططت لنا كلّ شيء، وليس في اليد حيلة.

الآفة الثانية: الطُّهورية: أي أنّ التفكير المؤامراتي يجعلنا لا نلتفت إلى أنفسنا، لننقد أخطاءَنا ونصلحها، ونهتم بتصحيح مسارنا، أو مراجعة أنفسَنا، فنحن ملائكة أطهار وكلّ المشاكل بسبب أعدائنا الأوغاد!

وكأنّ كل ممارساتنا وجميع أشكال سلوكِنا خالية من أيِّ عيوب وأيِّ تقصير وأيِّ أخطاء، وكلُّ ما بنا من ذلك فبسبب أعدائنا!

إن الحل في النقد الذاتي على مستوى الأفراد والقيادات والجماعات والمجتمعات والدول، لمعرفة جوانب الضعف وأسبابه وطرق علاجه، والإصلاح الشامل وبناء أفراد وأسر ومجتمعات ودول قوية تستطيع المقاومة وحماية نفسها من مؤامرات الأعداء [٣٥].

(٣٥) قد تحدثنا عن منطق القرآن الكريم في تحميل المسلم المسؤولية وعدم الاعتذار بمكائد الآخرين، في عنوان (التفكير التبريري).

(٢٥) التفكير الشعبوي

يمكن أن نسمي هذا الخطأ (تفكير ما يطلبه الجمهور)، والمقصود به: الحرص على إرضاء الناس بآرائنا وكلامنا ومواقفنا.. بغض النظر عن صواب أقوالنا وأفعالنا، فالمهم إرضاء الناس حتى لو كنا نعتقد أنّ هناك أصوب وأصح مما نقوله أو نفعله.

مع الأسف: رأي عامة الناس والجماهير له تأثير حتى على القادة والنخبة، فالقادة يراعون توجهات عامة الناس، ويحاولون الوصول إلى رضاهم وقبولهم وإعجابهم. وهنا تكمن المشكلة، فالنفاق من قبل الشعب للمسؤولين والحُكام واضح جلي، لكن نفاق النخب والمسؤولين للجماهير، والحرص على إعجابهم، هو النفاق الخطير الذي نتجاهله في أحاديثنا عادة عندما نتكلم عن النفاق.

كثيراً ما يتم المزاودة والمبالغة حرصاً على رضا الناس وانتزاع إعجابهم، بل بعض الخطباء يكرّرون المعاني ذاتها التي تنال التصفيق أو التكبير والإعجاب، فيصبح الخطيب مثل المطرِب.

والمشكلة أن اجتماع الجماهير يثير انفعالاً وعاطفة غريبة، حتى يذوب الفرد في الجماعة.. يهيج (س) لتأثره بـ (ع)، و(ع) ينفعل لهياج (س).

وهكذا نقع في (الدَوْر) وهو من المشكلات في المنطق، فإذا اقتنع (س) سيقتنع (ع) لكن اقتناع (ع) متوقف على اقتناع (س) فنقع في الدور، لكن هذا المستحيل منطقياً يغدو واقعاً عند الاجتماع والهياج.

المستبدون يعلمون مسألة الهياج الجماهيري، ويتكئون عليه في خطاباتهم، لذلك نبّهنا القرآن الكريم إلى أن التفكير السليم البعيد عن العواطف يحصل إذا انفرد المرء بنفسه، أو جلس مع من يحاوره، بعيداً عن ضغط المتابعين والحاضرين والجماهير.. فاتباع الحقّ حينها يكون أسهل مما هو عليه الحال لو كان الجمهور حاضراً يتابع.

قال ربنا سبحانه يرشدنا إلى التفكير غير الجماهيري: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ [سبأ: ٤٦].

من المصائب الكبرى التي يعاني منها سلوكنا الفكري أنّ كثيراً من النخب تتقرّب إلى العامة بموافقتها، فلا تصادمها كيلا تنفضّ عنها، وبعضهم يعملون في مؤسسات أو وظائف تموّلها العامة! وهؤلاء الموظفون

يعلمون أنهم إن خالفوهم سينقطع مصدر رزقهم، وبعضهم يطمع بأكبر عدد من أصوات عوام الناخبين، فيبذل جهده في النفاق للجماهير.

بل كثيراً ما يورّط العامةُ شخصاً ما من النخبة بمواقف شديدة ومتشنّجة، ثم ينفضّون عنه ويتركونه وحيداً، بل ربما لاموه وعَتَبوا عليه قائلين: الله يهديه، هو القائد، هل كان من الضروري يخضع للعامة؟ بينما الواجب أن تكون مهمة الحكماء توعية الناس بعواقب الأمور وتثبيتهم عند الفتن.

من صور الخضوع للجماهير عدم إنكار المنكر والبدع المنتشرة والأخطاء الشائعة، حرصاً على عدم مواجهة العامة ومصادمتهم.

من منطق التفكير الشعبوي موافقة الشيوخ لحماس جماعة الشباب والتحمس معهم، فيما يثير فتنة، فكثيراً ما يتم اتخاذ مواقف - قتالية مثلاً - من قبل شباب ملتزمين ويؤيدهم بعض الشيوخ الذين يحملون حماس الشباب واندفاعهم، مما يضفي على موقف الشباب شرعية لا يستحقها!

والأعجب من هذا والأدهى معرفة بعضهم أنّ هذه المواقف انفعالية وغير سليمة، فيخالف قناعاته ويؤيّدهم حتى ينال تعاطفهم وتأييدهم ويكثر مريدوه والحضور عنده! فالشباب وجدوا (من يَفهمهم) لا (من يُفهمهم)! وكان الأولى به أن يوعّيهم لا أن يسايرهم!

إن الواجب في مثل هذه المواقف محاورة الشباب المتحمسين، حتى يخفّ شغبهم، وتنتقل إليهم حكمة الكبار، لا أن يطيش الحكماء معهم.

هنا نقطة لا بد من الوقوف عندها؛ ليس المقياس والمعيار في سلامة الرأي مدى سلامة النتيجة، فقد يكون الصواب في الوقوف في مواجهة الظَلَمة والمستبدين، حتى لو أدى ذلك إلى السجن والاعتقال، أو النفي والتهجير، أو حتى الإعدام، المهم في هذه المواقف أن يكون القرار نابعاً من تفكير متزن، لا تفكير شعبوي، تفكير ناضج يرضي الله تعالى، بموافقته للحق ومناسبته للواقع، لا أن يكون الموقف نابعاً من مسايرة عواطف الجماهير ورغباتها فقط.

إن تفكير ما يطلبه الجمهور يكون عند من اعتاد المجاملة، ولا يقدر عواقب الأمور، فتسيطر عليه العواطف والانفعالات والغوغائية والشعبوية والخضوع لردّات الأفعال، بينما كان من أبرز صفات رسل الله تعالى والمصلحين على دربهم الصدق والأمانة والنصح لقومهم، لقول نبينا محمد ﷺ: ((إِنَّ الرَّائِدَ لَا يَكْذِبُ أَهْلَهُ))

صدق الله العظيم القائل: {وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ} [الأنعام: ١١٦]

أسأل الله أن يلهمنا رشدنا ويوفقنا إلى ما يحبه ويرضاه.

(٢٦) تفكير خيار وفقّوس

هذا النمط من أنماط التفكير يقع فيه الكثير من الناس، رغم أنه مذموم لدى العامة والخاصة على السواء، يستنكره الناس بعبارات مختلفة، منها قول العامة على من يكيل بمكيالين: هل هذا ابن البطة البيضاء؟ وذاك ابن البطة السوداء؟ يستنكرون بذلك التمييز بين المتساويين من غير وجه حق.

ومعنى الكيل بمكيالين أننا إذا كنا نحن (الآخذين)، كلنا بمكيال ضافٍ كافٍ واستوفينا وربما طَفَّفنا، أما إذا كنا نحن (المعطين) كلنا بمكيال آخر أصغر، وإذا اضطررنا إلى الكيل للآخرين بما كلنا به لأنفسنا أنقصنا، لنرضي شعور استحقاق الأفضل الذي ندّعيه لأنفسنا.

إن الكيل بمكيالين يشمل كل شؤون الحياة المادية والمعنوية، وقد وصف القرآن الكريم هذا السلوك الظالم بدقة، وذمه وهددَّ العاملين به، قال ربنا سبحانه: ﴿وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ * الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ * وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ * أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ * لِيَوْمٍ عَظِيمٍ * يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [المطففين: ١-٦]

ويبدو أن هذه العادة قديمة حديثة، وممن اتصف بها من الشعوب القديمة قوم شعيب عليه السلام، قال الله سبحانه على لسان شعيب عليه السلام: ﴿فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ٨٥].

أسباب الكيل بمكيالين:

وسأذكر هنا ثلاثة أسباب توقعنا في الكيل بمكيالين:

السبب الأول: سهولة نقد الآخرين وصعوبة نقد النفس.

إن هذا الخلق النفسي المذموم يجعل صاحبه ضحية التفكير الانتقائي "خيار وفقوس"، فيكيل بمكيالين، ليتفق تفكيره مع رغبات نفسه، مع أنّ النقد مهم لضبط المسار، وتصحيح الأخطاء، وشحذ الهمة عند التعب والخمول، وهو مبدأ إسلامي عظيم يقع تحت الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والنصيحة.

الواقع أن نقد الآخرين أسهل من النقد الذي يوجهه الإنسان لنفسه، لأننا كثيراً ما نخلط بين الذات والرأي، فأيّ نقد لمسألة أو فكرة يعني نقد شخصية قائلها، كما يفهم الكثيرون، بينما المفروض علينا أن نحرص على سماع النقد، حتى نصوّب سلوكنا وأفكارنا، على مبدأ أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه: (رحم الله امرأً أهدى إليّ عيوبي).

وفي مقام النقد لا بد من التذكير بأن من الواجب على الناصح التزام آداب النصيحة، وعلى المنصوح قبول النصيحة، حتى لو لم يلتزم الناصح بآدابها.

المشكلة التي تعاني منها الإنسانية أن الشعوب والجماعات والأفراد اعتادت مدح أعمالها وسلوكها وأنشطتها ورموزها، في مقابل نقد الآخر وتسخيفه، فإن كان المتكلم عنه "من جماعتنا" اقتصر الحديث على ذكر مزاياه، وإن كان "من الآخَرين" اقتصر الحديث على ذكر عيوبه.

ومن المصائب في هذا النوع من التفكير اختيار ما يؤيد وجهة نظرنا وفكرنا وأيديولوجيتنا أو عاطفتنا، وعدم إنصاف (الغير)، على خلاف منهج القرآن الكريم الذي حث على إنصاف الجميع، موافقين ومخالفين، حلفاء أو أعداء.

قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾ [المائدة: ٨].

رحم الله الشاعر إذ قال:

(وعَينُ الرِضا عَن كُلِّ عَيبٍ كَليلَةٌ ** وَلَكِنَّ عَينَ السُخطِ تُبدي المَساوِيا)

وقد صدق من قال: الإنصاف عزيز.

مع الأسف لقد غدا النقد الخارجي مرفوضاً، والنقد الداخلي معدوماً.. وأول الخاسرين من هذا هم المطقّفون أنفسهم، حيث تتراكم الأخطاء، فتنفجر الأمور في النهاية، ويشمت الأعداء، ويقع الجائر تحت طائلة لوم من كان يرفض قبول نقدهم!

السبب الثاني: عدم وضوح الحدود الفاصلة بين بعض الأخلاق والرذائل.

السبب الثاني الذي يؤدي إلى الوقوع في فخ الكيل بمكيالين، عدم وجود حدود دقيقة ضابطة للفرق بين fuq الصفات والأخلاق الفاضلة والرديئة. من أمثلة ذلك:

١-الشجاعة والتهوّر والجبن:

إذا كنا نحب الشخص الذي قام بعمل مغامر، نقول عنه: هكذا يجب أن يكون الرجال، أخذ بالعزيمة. لكن السلوك ذاته عندما يصدر عن شخص نكرهه تتحول لهجة الكلام، فيبدأ الحط من شأنه وقيمته، (فلان أنت لا تعرفه.. فعل كذا كذا مرة.. وهو جبان وليس شجاعاً.. لا تنظر إلى هذا الموقف فقط.. لولا طمعه في ثناء الناس عليه ما تهور هكذا.. هو أصلاً يفعل هذا لأنه يريد كذا وكذا، ونيته كذا وكذا).

وإذا قام شخص ما بفعل بطولي يحمد عليه، بدل أن يشكره الناس الكارهون له، يبدؤون بوصفه بما ينقص من شأنه، ويحبط عمله: (متهور عاطفي أهوج لا يقدر عواقب الأمور.. ألقى بنفسه إلى التهلكة).

٢-رجل فصيح:

الفصاحة والبلاغة في القول والموقف من الأمور الإشكالية أيضاً، التي تدخل في تقديرها أهواء الناس، فإن كان المتكلم (من جماعتنا)، أو ممن نحبهم، انطلق المديح بلا عد ولا حساب، (ما شاء الله.. الفصاحة والبيان.. والبلاغة والتأثير وفن الإلقاء والكاريزما.. والكلام المناسب في الموقف المناسب).

وإن صدر الكلام ذاته عن شخص من الطرف الآخر الذي نكرهه، انقلب الكلام إلى ضده، (متشدق، متفيهق، يتفلسف علينا، يتفهمن، يبالغ، ما فائدة رصف الكلام بدون عمل؟).

٣-الجود والكرم:

ومثل من سبق، الجود والكرم إن صدرا ممن يحبه الناس أو يكرهونه، فإن جاد الشخص بالخير، تصفه جماعته بالكرم والشهامة والجود والسخاء، وكونه ابن العزّ والكرم، ولكنه يوصف من قبل كارهيه بالإسراف والرياء والمفاخرة. نعوذ بالله من حسد وبغض يسد باب الإنصاف.

السبب الثالث: اعتياد التبرير

السبب الثالث للوقوع في مشكلة الكيل بمكيالين، اعتياد التبرير[٣٦] للنفس والجماعة، ورفض إيجاد أي مبرر للفعل ذاته، إن صدر من جماعة أخرى غير جماعتنا.

فن التبرير تجيده معظم الأمم، ويتقنه الأشخاص الفاشلون إتقاناً عجيباً؛ فالتحديات فوق التصوّر، والتآمر فوق الطاقة، وأخطاؤنا القاتلة الممتدة قروناً كلها اجتهادات، طالما أننا مأجورون على اجتهادنا بأجر أو أجرين. بينما الحقيقة أن الإنسان يأثم بالتقصير وعدم الأخذ بالأسباب، والاجتهاد الخطأ الذي يثاب عليه فاعلُهُ هو ما استحضر فيه جميع أدواته، وبذل فيه كل الجهد.

(٣٦) ما ذكرناه في عنوان التفكير التبريري لن نكرره هنا.

التسويغ للنفس يقتضي دائماً نقيضه مع الخصم، وهو اتهامه، فالفعل نفسه الذي يُمْدَح به أبناءُ جماعتنا يتم تفسيره بأسوأ المقاصد والغايات إذا صدر عن المخالفين، والخطأ غير المقصود إذا صدر ممن يكرهونه تصدر الأحكام فوراً بكونه أمراً بُيّت بليل، وطُبخ على نار هادئة.

وإذا وقع تقصير من الآخرين بسبب ضعف الإمكانات، لا يلتمس لهم العذر، بل يتهمون على الفور بالكسل والتقاعس والخَوَر والضَعْف، ومثل ذلك الفتن والخلافات التي تقع عند الآخرين ليست نتيجة (خطأ بالاجتهادات) – كما نبرر لجماعتنا – بل هي بلاء وعقاب من الله نتيجة سوء نياتهم وخبث مقاصدهم.

هذه الأسباب الثلاثة سالفة الذكر تلخص المنطلقات التي يجد من خلالها الكيل بمكيالين مبرراً لوجوده وشيوعه بين الأفراد والجماعات، نسأل الله سبحانه أن يرزقنا العدل والإنصاف في أمورنا كلها.

(٢٧) تحليل أو معلومة؟

كثيراً ما يتم الخلط بين التحليل الشخصي الذي يعبر عن رأي الإنسان في القضية، وبين المعلومات المثبَتة، والمعلومات غير المثبَتة، فعندنا هنا مستويات من المعلومات.

المستوى الأول من المعلومات:

وهي المعلومات ذات الوثوقية العالية، كالحقائق العلمية المختبرَة والمثبَتَة.. لذلك نذكرها بعبارات التأكيد والإثبات مع إحالتها إلى مصادرها.

المستوى الثاني من المعلومات:

معلومات مستواها أقل، وهي معلومات غير مؤكدة، وغير مختبَرَة بشكل جيد، وهذه ينبغي أن يُعبّر عنها بعبارات مثل: (قرأتُ مرة، أو هكذا معلوماتي، وغير متأكد، هكذا أذكر، هكذا يقولون، في بعض الأبحاث يقال كذا، في بعض الأقوال يذكر كذا).

المستوى الثالث للمعلومات:

وهو (التحليل الشخصي) مثل: أعتقد أن زيداً لا يرتاح لعمرو، أو يغار منه، أو يحب فلاناً، أو يتمنى أن يكون مثل فلان، أو يقلد فلاناً، أو فلان يحيك المؤامرات لعلّان، أو الشركة الفلانية تحاول أذيّة الشركة العلانية، أو الدولة الفلانية تمكر بالفئة الفلانية، ويمكن أن يُعبّر عنها بـ: (أظن هكذا – هكذا يخطر ببالي - لعلّ الصواب كذا- أظن الحل في كذا وكذا) وهذا المستوى نفسه درجات ومستويات في مستوى الوثوق.

وكل ما يذكر في هذا المستوى عبارة عن تخمينات وليست معلومات، إلا إن كانت التحليلات مبنية على معلومات، لذلك علينا التأكد من التحليل، وذلك بطلب سبب هذا الرأي.. فنقول: كيف عرفت هذا؟ أو ما هي أدلة هذا الكلام؟ كيف نتأكد من صحة هذه المعلومات؟

إن محاصرة القائل بالأسئلة تكشف مدى وثوقية هذا التحليل، فقد تكون الأسباب التي دفعته إلى هذا التحليل لا تؤدي حتماً إلى هذه النتيجة، وعند التفسير والتعليل قد نوافق المحلّل والمفسِّر وقد نخالفه.

وقد تنبه علماء الحديث إلى ذلك فقالوا في الجرح والتعديل: (لا يُقبل الجرح إلا مُفَسّراً) فلعل النقد المفسَّر يكشف عن أسباب غير جارحة أصلاً!

فمن الجيد أن نسأل المتحدّث أمامنا قائلين: هل هذه معلومة أو تحليل؟

فالمعلومة ندقق بصحتها من مصدرها الأصلي، وليس من الناقل عنها، بينما التحليل الشخصي نتأكد من صاحبه: ما الذي دعاه لأن يفسّر الأمر هكذا؟ وبناء عليه قد نوافقه في تفسيره وتحليله، وقد نخالفه، وقد نتوقف. لذلك كان علماؤنا يقولون: (إنْ كنتَ ناقلاً فالصحة، أو مدعياً فالدليل).

التحليلات والآراء الشخصية مهمة كمواد تحتاج فحصاً واختباراً وتأكّداً حتى تنتقل إلى مستوى الحقائق.. فهي فكر شخصي قد يكون بعضها (إبداعياً) فلا يجوز إهمالها دون فحص، فقد تتضمن أشياء مفيدة وعملية..

ملاحظات للتعامل مع المعلومات:

وهنا أربع ملاحظات مهمة ينبغي ألا نغفلها في أثناء التعامل مع المعلومات:

١-تقدير مدى أهمية المعلومات:

إن العقل مثل المطحنة، والمعلومات مثل الحبوب أو المواد التي يطحنها. فالمعلومات هي المواد الخام التي يعمل عليها العقل ويشكّلها، وينتج من خلال التفكير فيها النتائج، لأن التفكير هو إعمال العقل في الموجود، للوصول إلى معرفة المجهول، وهي نتائج التفكير.

٢-عدم الانبهار بكثرة المعلومات:

قد تشهد في بعض الكتب كمّاً كبيراً من المعلومات الكثيفة، متعددة الموارد، يصل المؤلف في نهايتها إلى استنتاجات معينة، هنا ينبغي للقارئ ألا ينبهر بكثافة المعلومات، فيثق في النتيجة، ويسلّم بها دون التدقيق في مدى اتساق النتيجة مع تلك المعلومات، لأن المعلومات مثل المواد الخام، قد نشكلها بعدة طرق ونعيد الاستنتاجات، ويمكن أن نصل إلى نتائج مختلفة بناء على المعلومات ذاتها.

كثيراً ما يقع لك أن تطلع على مقال أو بحث أو كتاب ويكون محشواً بالمعلومات والنقولات والوثائق لكنك تختلف مع الكاتب في النتائج، رغم تسليمك بصحة المعلومات، وهنا تبرز أهمية التعامل مع المعلومات كمواد خام نرتبها بأشكال مختلفة، ونستنتج منها نتائج أخرى غير ما استنتجه الكاتب، قد تكون أقرب إلى الموضوعية والواقع.

٣-ضرورة التعامل مع المعلومات بحيادية:

إن للتعامل مع المعلومات بحيادية دوراً في تصويب الاستنتاج، مثل القاضي الذي يجمع الأدلة بتجرد، ومثل الباحث الذي يجمع المعلومات بتجرّد، ولا يرفض ما يخالف اعتقاده أو فروض بحثه، أو النتائج التي يتوقعها.

٤-ضرورة التمييز بين الحقيقة والصدق:

قد تكون المعلومة صادقة، لكنها خاطئة لأنها تخالف الواقع، مثل أن يقول شخص نعرف صدقه: (رأيت زيداً في الجامعة قبل قليل)، فهو صادق، ومخطئ في الوقت ذاته، وذلك أن زيداً غائب حقيقة في ذلك اليوم، ولكن صديقنا رأى شخصاً آخر يشبه زيداً وظنه هو.

وقد ينقل شخص ثقة معلومة يظنها صحيحة، لكنها قديمة وخاطئة، وناقلها لم يتبين ذلك؛ مثل من يعتقد صحة بعض النظريات العلمية القديمة، ويجزم بها، ولا يعرف أن العلم أكد خطأها بيقين، وأثبت عكسها.

فعلينا التمييز بين الصدق وحقيقة الواقع، وبين الخيانة والخطأ، فالمحاسِب الأمين نراجع خلفه، ليس شكاً بأمانته أو جزماً بخيانته، لكن شكاً بخطئه. فالأشخاص الذين نأتمنهم على أموالنا نثق بأمانتهم، لا بعصمتهم من الخطأ.

ومثل ذلك في أعمالنا الجماعية والمسؤوليات العامة، قد لا نولّي شخصاً منصباً ما؛ ليس لعدم صلاحه أو لضعف تقواه الشخصية، بل لعدم كفاءته وعدم مناسبته لهذا الاختصاص، وثمّة فرق شاسع بين الصلاح والصلاحية.. فكثيرون صالحون، لكنهم لا يَصلحون لهذا المنصب. لكن الأسوأ من هذا ما يحدث في بعض مجتمعاتنا من تقديم الولاء على الكفاءة، بكل أسف!

الخلاصة:

إن هذا النوع من التفكير الذي جاء تحت عنوان "تحليل أو معلومة" ينبهنا إلى ما يقع عند الكثيرين من الخلط بين المعلومات الموثوقة والتحليل الشخصي، ويمكن تلخيص ما جاء فيه في مجموعة نقاط، هي:

١-علينا التمييز بين المعلومات والتحليل الشخصي.

٢- علينا الانتباه إلى أهمية وجود المعلومات، فالعقل دون معلومات مثل المطحنة دون حبوب.

٣-ينبغي ألا ننبهر بكثرة المعلومات، فقد نختلف في تركيب المعلومات أو منهج تحليلها.

٤- التعامل مع المعلومات بحيادية مثل القاضي لا مثل المحامي، من الأهمية بمكان.

٥-من الضروري التمييز في المعلومات بين الحقيقة والصدق، فقد يكون الناقل صادقاً ومخطئاً في الوقت نفسه.

إن مراعاة هذه الأصول يمكن أن يقرب الباحث أكثر من النتائج العلمية الصحيحة.

نسأل الله التوفيق والسداد إلى الخير والحق.

(٢٨) التفكير النقدي المشاكس

من عيوب التفكير المذمومة التفكير المستسلم.

وهو التفكير التصديقي الوثوقي الزائد عن الاعتدال، الذي تضعف فيه الحاسّة النقدية، فيميل صاحبه إلى تصديق أيّ شيء يقال له، ويمكن أن نصف صاحبه بالقابلية للانخداع وتصديق كلِّ شيء.

إن كلمة (نعم، ولكن..) ضرورية للتنبيه على أشياء كثيرة خطيرة، ولو كان خطرها احتمالاً ضعيفاً، فالتنبّه إليها ضروري ومفيد، لتجنّب المخاطر المستقبلية والنواقص والعيوب الحالية، ورحم الله أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ القائل: (رحم الله امرأً أهدى إليّ عيوبي).

إن التفكير النقدي منطلق أساسي للتطوير، وذلك لأن النقد يتناول جوانب التقصير والضعف والمَخاطِر، وينبه عليها، ليبحث لها عن حلول أو يتم تجنبها، فيكون بذلك مقدّمة للتفكير الإبداعي، عبر إيجاد الحلول والاستدراك والتطوير بما يسهم في التحسين المستمر، ومن هنا نستطيع القول: النقد مقدمة البناء والتطوير.

ولكن ماذا لو تحول التفكير النقدي إلى طبع في الإنسان؛ يستخدمه في نقد كل شيء، والشك في كل نتيجة، مهما كانت علمية ومتزنة؟

إن الضرر الذي يسببه التفكير النقدي المشاكس قد يوازي الضرر الذي ينتج عن التفكير السلبي الوثوقي، القادر على تصديق كل شيء، حتى دون التفكير بمدى صحته من فساده.

قواعد للتفكير النقدي المنتج:

وحتى يكون التفكير النقدي بنّاء ومفيداً سأذكر أربعة أشياء ينبغي تجنبها، وأربعة ينبغي فعلها، وسأبدأ بذكر الأشياء التي ينبغي تجنبها عند ممارسة التفكير الناقد حتى يكون النقد فعالاً.

وإذا سألت: لماذا نبدأ بما يجب تجنبه؟ فأقول: لأن التخلية قبل التحلية، كما يقول علماؤنا. وهذه الأشياء الأربعة هي:

١-ألا نكون مشاكسين.

ليس المقصود بالتفكير الناقد المشاكسة، واختلاق العيوب التافهة، والفهمنة وإسقاط الأفكار لمتعة

الإسقاط، بل النقد الموضوعي المعلّل الذي يطوّر الواقع ويرقّيه.

فبعض هواة النقد المهم عندهم النقد ذاته، وهم قادرون دائماً على إطلاق الوصف وضده على الأشياء، فمثلاً: إذا قدّمت خطة مفصّلة، يقول لك: هذه خطة معقّدة. وإذا جئت بخطة مبسطة، قال: مختزلة وبدائية!

وهذا الصنف من الناس دواؤه التجاهل، أو تعليمه أنّ النقد يعني التقييم وهو يشمل الإيجابيات والسلبيات، وليس السلبيات فقط.

٢-لا نقتصر على السلبيات

عند التفكير الفردي أو في ورشات العمل والعصف الذهني الجماعي، من الأفضل البدء بالإيجابيات، حتى لا يسيطر النقد السلبي على جلسة التفكير ومسار الحديث، وبما أنه من المعتاد في الواقع العملي لجلسات النقاش والتفكير الجماعي أن يطغى جانب على جانب، إما جانب النقد وذكر السلبيات، أو جانب ذكر الإيجابيات، فمن الأفضل البدء بالإيجابيات.

ويحدث أحياناً أن يقوم أصحاب الفكر الناقد بالتشويش في وقت ذكر الإيجابيات، حينها من الجيد إخبارهم أن وقت السلبيات سيأتي، وإن رفض أحدهم قل له: اكتب السلبيات على ورقة، حتى لا تنساها، ثم شارك معنا الآن بالإيجابيات. إلا إنْ كان المزاج العام يغلّب التفكير السلبي، فالأفضل عندها تقديم وقت السلبيات، وجمع السلبيات كلها ثم تخصيص وقت للإيجابيات، حتى تفتح مجالاً للشخص الناقد وغيره لتفريغ ما في جعبتهم من سلبيات، ليدلوا بدلوهم عند الحديث عن الإيجابيات، وإلا سيبقى التفكير بالسلبيات مسيطِراً على العقول طوال الوقت.

٣-لا تنسَ نفسَك فالنقد الذاتي صعب

عندما نتكلم عن أهمية العقلية الناقدة، أغلب الناس يفكر بنقد غيره، ولا يخطر له أن نقد نفسه داخل فيه، لأنّ النقد الذاتي مرّ على النفس، بينما نقد الآخرين أسهل، فهو يعطي الناقد تفوقاً فورياً على المنقود.. بينما المدح والإشادة بالآخرين تجعل الممدوح أفضل من المادح.. لذلك تستصعب كثير من النفوس مدح الآخرين بما فيهم.

ونحن عندما نقدم نقداً لأنفسنا نشجّع الآخرين على طلب النصيحة والنقد، أو على الأقل نشجعهم على قبول ما يوجه إليهم من انتقادات.

٤-لا تسمح بالتسفيه والسخرية

ينبغي عند النقاش أن نحذَر من التمادي في النقد، والبدء بالسخرية من الآخرين، أو تسفيه عقولهم، لأن ذلك يدل على الهوى، ويغلق قلوب الآخرين عن سماع النقد!

ومما ينبغي الحذر منه في أثناء النقاش الفكري، الابتعاد عن فخ (الشخصنة)، أي اتهام الشخص عند نقده، كما علينا نحن -عندما نتعرض للنقد- أن نميّز بين نقد بعض أفكارنا أو أفعالنا، وبين نقد شخصياتنا، فأفكارنا وأفعالنا ليست جزءاً من شخصياتنا فلا نخلط بينها.

ومما ينبغي لنا ألا نسمح بتسفيه رأي أيّ شخص يقدّم فكرة بنّاءة إيجابية في أثناء العصف الذهني الجماعي، فمن النصائح: النظر في الإيجابيات والميزات أولاً، ثم لمّا يكتمل البناء، وبعد أن نعدّد مزاياه يأتي دور النقد، لأن النقد إن تمّ أولاً بأول عند سماع بذرة الفكرة الجديدة، يصعب قبول الفكرة المتَقَدَة أو التفكير بمزاياها أو إكمالها وبلورتها! وسيخشى الآخرون تقديم فكرة سيتم نقدها أو السخرية من صاحبها[٣٧]!

أما الأمور الأربعة التي ينبغي أن نحرص على فعلها عند النقد فهي:

١-لنكن منطقيين وننتبه للمشاعر

إن الانتباه إلى مشاعرنا ومشاعر الآخرين ضروري جدا في أثناء أي اتصال مع الآخرين. وعند النقد علينا مراعاة مشاعر وقلوب الذين ننقدهم، وفي الوقت ذاته ننتبه لأنفسنا. فالتفكير الناقد المطلوب هو المنطقيّ والعلميّ، بمعنى أنه النقد المعلّل الذي يذكر الأسباب ولا يعتمد على المشاعر والعواطف فقط، أو يمس ذات الأشخاص، بحيث إن كُتب النقد يكون منطقياً مقنِعاً..

والنقطة التالية ستؤكد ذلك وتبيّنه أكثر.

٢-ننتبه إلى حالنا النفسية

من الضروري الاتزان النفسي عند النقد والتقييم، بذكر السلبيات أو الإيجابيات، فعند التفكير بالإيجابيات والفُرَص تكون الحال النفسية مبتهِجة ومتفائلة ومنفتحة، بينما الحال النفسية التي ترافق

(٣٧) كما مرّ معنا الكلام حول التفكير الإبداعي في عنوان (التفكير النمطي) الذي هو نقيض التفكير الإبداعي.

التفكير السلبي أو الناقد، هي النفسية المتوجِسة والخائفة والحذرة وأحياناً المتشائمة.. والتفكير المعتدل يستحضر الحالتين لتتكاملا، وينظر إلى القضية من كل الزوايا.

٣-نبدأ بالمدح وبيان الميزات

إن النظر في الإيجابيات والميزات ينبغي أن يكون أولاً، ثم لمّا يكتمل البناء وتتعدّد مزاياه يأتي دور النقد والنظر في المخاوف ونقاط الضعف.

وهذا ينبغي أن يكون لنا منهجاً، سواء في تفكيرنا عندما نكون وحدنا، أو في ورشات العصف الذهني، أو عند نقد الآخرين، فعند البدء بالإيجابيات تنشرح النفس وترتاح وتتقبل النقد، أكثر من عدم ذكر الميزات الجيدة، لأنك لو اقتصرتَ على السلبيات، قد يظنّ المستمع أنك لا تعرف الميزات والإيجابيات، أو لا تعترف بها، وتعرف جوانب النقص أو النقد فقط.

٤-نقدّم حلولاً

ينبغي أن نقدّم حلولاً ولا نقتصر على النقد، فالبناء أصعب من النقد، لأنه يحتاج أفكاراً وتنفيذاً، وهذا يحتاج وقتاً وجهداً وخبرة، بينما النقد مباشر وسهل نسبياً، وليس كلّ نقد سهلاً، وليس كلّ نقد صحيحاً، وليس كلّ نقد مفيداً، فالنقد من الخبراء يوفّر جهداً ووقتاً وتجارب ربما تكلّف الكثير.

إذن من الأفضل أن يقدّم الناقد مع نقده حلولاً واقتراحات لحلّ تلك المشاكل التي ينقدها، أقول: (من الأفضل ذلك، وليس من الواجب)، إذ إن تقديم الحلول ليس شرطاً، فيكفي الناصح أن يخبرنا بنقاط ضعفنا، ومواطن الخلل عندنا، وعلى صاحب المشكلة البحث عن الحلول، فإنْ قدّم الناقد مع نقده حلولاً يكون قد أجزل العطاء وأراح المنقود.

ومن المفيد هنا طلب الحلول المقترحة ممن ينقد أو يذكر مشكلة، فمن قواعد الإدارة التي يؤكّد عليها ريتشارد تمبلر في كتابه قواعد الإدارة: (اطلب من موظفيك أن يأتوا بالمشكلة واقتراحات للحلول، حتى يعتادوا ذلك) وأقول عوّد أولادك وزوجتك، وعوّد نفسَك، وكلّ من حولك، على هذه الطريقة، فهي مفيدة إن شاء الله للجميع.

لكن ليس من الحكمة رفض النصيحة إلا أن تكون مشفوعة بالحل، فمن قال لك:

- سيارتك تسرّب زيتاً.

اشكره على نصيحته وإن لم يقدّم لك حلاً.

(٢٩) التفكير السلبي اليائس

التفكير السلبي هو التفكير الذي لا يرى الإيجابيات، وأصحاب هذه العقلية عادة يفكرون بالسلبيات والمخاطر المستقبلية المحتَمَلة، ومواضع الضعف الحالية فقط، مخافة أن يلحقهم أذى أو يفوّتوا مصلحة.

إن الانتباه إلى السلبيات مفيد بلا شك، شريطة أن يكون باعتدال، وبناءً على معطيات ومعلومات، لا أن يكون مبنياً على نفسية متشائمة يائسة لا ترى أملاً في شيء!

أصحاب التفكير السلبي العميق تسيطر عليهم العقلية المؤامراتية والتشاؤمية، لدرجة تصيب صاحبها ومن يستمع إليه بالشلل، فلا نستطيع فعل شيء أمام حجم المؤامرات والتحديات التي يذكرها ذلك المتشائم.

وعملياً.. من يستمع لهؤلاء، أو يقرأ كتاباتهم، يخلص إلى أنّ عليه اعتزال الناس، والاهتمام بخاصّة نفسه فقط، أما الإصلاح والعمل في الشأن العام فعليه أخذ إجازة مفتوحة منهم، انتظاراً للفرج أو قيام الساعة، غافلاً في ذلك عن أنّ الفرج له سنن، أهمها السعي والعمل والبذل والعطاء والتضحية، وأن انتظار الساعة يكون بكثرة العمل الصالح، وأهمّه الإصلاح.

التفكير السلبي يخالف سنة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، ومن اقتفى أثرهم من المصلحين والمجددين والدعاة الصادقين، فهؤلاء يعملون في بيئات صعبة، وظروف أصعب، وإلا فما الحاجة إلى التوعية والدعوة والإصلاح إذا كانت الأمور كلها بخير؟

إن المرسلين والمصلحين من بعدهم أصحاب تفكير إيجابي، يجد أحدهم في كل محنة منحة، وفي كل مصيبة مجالاً للأجر والاستثمار، وفرصة للتقدم؛ عيون الأشخاص الإيجابيين تلتقط الفرص التقاطاً.

يلزمنا الكثيرون ممن يمتلكون رؤًى وأحلاماً وآمالاً عريضة، فالمغيّرون والمصلحون ورجال الأعمال الناجحون أشخاص طموحون حالمون، يتطلعون إلى الأفضل دائماً.. ويعملون له ويسعون إليه..

ينتشر التفكير النقدي بيننا، وهذا أمر جيد، فالنقد بداية الإبداع، ننقد الموجود لتجويده أو تغييره، ولكننا نحتاج إلى جانب التفكير النقدي تفكيراً بنّاء يقترح حلولاً للمشكلات، ومبادراتٍ وبدائل وتحسينات وأساليب تطوير.

فمع تسليمنا بأهمية التفكير النقدي، إلا أننا في الوقت ذاته نحتاج حلولاً بديلةً وأفكاراً إيجابية، تغطي الفتحات التي أحدثها النقد.. حتى لو كانت الأفكار الإيجابية والحلول والمقترحات من أشخاص آخرين

غير الناقدين، ومن الواقعية أن تكون الحلول ضمن قدرتنا واستطاعتنا، قال الله تعالى: {لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا} [البقرة: ٢٨٦]، وقال سبحانه: {فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ} [التغابن: ١٦].

مقابل ما سبق ينبغي التنبه إلى خطر وصول التفاؤل والنظر إلى الإيجابيات حدّ السذاجة، فإذا لم يكن هناك معطيات وأسباب ومؤشرات للتفاؤل فهي أماني فارغة، خاصة إذا صدر التفاؤل عن أشخاص مجرَّبين ثبت فشلهم، فالتفاؤل معهم وإعطاؤهم فُرَصاً أخرى هو سذاجة ممجوجة ومضاعفة.

لذلك من المفيد جداً تقديم الأفكار الإيجابية مع التعليل المقنِع لو جودها، حتى يكون تفاؤلاً علمياً منطقياً.

التفكير الإيجابي المطلوب ينظر في إيجابيات الأفكار المطروحة والقرارات والمقترحات.

التفكير الإيجابي يعتمد الحلول الناجحة التي استخدمناها من قبل وأثبتت كفاءتها.. وفي الوقت ذاته ينفتح على الآخرين فيقتبس من تجاربهم الناجحة.

التفكير الإيجابي البنّاء يجمع الحلول ودواعيها وأسبابها وحُججها ومؤيداتها والردود على النقد الموجّه إليها، ويصوغها في النهاية اقتراحات ناضجة كاملة..

قال الله تعالى: {وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (١٠٥)} [التوبة: ١٠٥].

(٣٠) خاتمة

لم تنته الأخطاء ولن تنتهَي، فما دام العقل يفكّر، فهو دائماً سيتلمس طريقه بحثاً عن المقصد، وسيقع في أثناء ذلك في الأخطاء، وهذا من محدودية الإنسان وافتقاره إلى التثبت والتوجيه والتطوير المستمر، وهذا ما يكشف بعض أسرار تكرار المسلم قوله تعالى: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ في اليوم عشرات المرات.. في صلاته وتلاوته فاتحة القرآن الكريم، ففي كل لحظة يحتاج الإنسان إلى هداية الله تعالى في اتخاذ قراراته التي لا تنتهي، بداية من أدق الحركات والكلمات، ونهاية بأهم القرارات الكبرى في حياتنا.

إن مثل هذا الكتاب ضروري في تنمية قدرات العقل الجبّارة التي وهبها الله تعالى للإنسان، والباب مفتوح لتعميق التفكير القاصر الذي يؤثّر على فاعلية الإنسان في هذا الكون.

لم أكمل الثلاثين وسأختم بأن أطلب منك -أخي القارئ- أن تكتب بعضاً من الأساليب الخادعة وأنواعها -التي لم ترد في الكتاب- ويستخدمها بعض الناس، ليمرروا أفكارهم الخاطئة، وهي تلبس ثوباً مزوراً ظاهره الحقائق والحجج، وحقيقته المغالطة والخداع، لذلك سأترك الباب مفتوحاً لمن يريد أن يكمل المسيرة في التنبيه على أنواع أخرى من التفكير الخاطئ، التي يكشفها التفكير الناقد، الذي يحتاجه المسلمون في أيامنا أكثر من ذي قبل.

منها على سبيل المثال لا الحصر:

١-التفكير العاطفي.

٢-التفكير الخرافي.

٣-التفكير المتصلّب في القضايا الخلافية الظنية.

٤-التفكير الجزئي الذي يغفل عن الكليات.

٥-التفكير المصلحي الشخصي المتدثر بالمصلحة العامة والمبادئ.

٦-ادعاء الإجماع، أو النسبة إلى أكثر العلماء أو جمهورهم، والحقيقة خلاف ذلك.

٧-استخدام اللغة الأجنبية والمصطلحات الصعبة والإلغاز بغية الإبهار.

نسأل الله التوفيق والرَّشاد في كل شؤوننا، وأن يهدينا سُبُل السلام وأن يرزقنا حُسْن الختام بفضله وكرمه.

مراجع مختارة

- القرآن الكريم.
- مقدمة ابن خلدون.
- كتاب: العادات السبع للناجحين، ستفن كوفي.
- التفكير الموضوعي د. عبد الكريم بكّار.
- القبعات الست للتفكير، إدوارد دي بونو.
- خطوة نحو التفكير القويم، د. عبد الكريم بكّار.
- التحيز وضرره على الفقه والمعرفة (رسالة الحجاب للطريفي نموذجاً) تأليف أحمد سالم وعمرو بسيوني.
- روح التفلسف، د. حمّو النقاري.
- ضوابط المعرفة، وأصول الاستدلال والمناظرة، صياغة للمنطق وأصول البحث متمشية مع الفكر الإسلامي، عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني.
- أسس الفلسفة، د. توفيق الطويل.
- أولويات الحركة الإسلامية في المرحلة المقبلة، د. يوسف القرضاوي.
- النظرات، مصطفى لطفي المنفلوطي.

سيرة المؤلف المختصرة:

- د. حذيفة عكاش من مواليد سورية، حمص، ١٩٧٨م.

باحث وإعلامي إسلامي، له عدة مؤلفات ومقالات ومحاضرات منشورة، وبرامج حوارية وفكرية، مثل: برنامج:

بصراحة.

وبرنامج أفكار للمستقبل.

مهتم بتجديد الفكر الإسلامي، وقضايا النهضة والحضارة والسياسة الشرعية.

يقيم في استنبول تركية.

ويدير مؤسسة :رؤية للفكر.

وهي مؤسسة تعتني بنشر الفكر النهضوي.

من مؤلفاته وغالبها متوفر على النت:

١- ضوابط التيسير في الفتوى.

٢- تقويم النظرية الحركية للشهيد سيد قطب (تحت النشر).

٣- التصوف (نظرة جديدة).

٤- سجالات في التجديد الديني.

٥- تكوين الثقافة الإسلامية: من التكديس إلى الفاعلية (تحت النشر)

٦- فن التمثيل، أحكامه وضوابطه الشرعية.

٧- التصوير المعاصر، أحكامه وضوابطه الشرعية.

٨- الغناء والموسيقا والمؤثرات الصوتية، أحكامها وضوابطها الشرعية.

٩- عمل المرأة في الإعلام المعاصر، أحكامه وضوابطه الشرعية .

١٠- الأخبار في وسائل الإعلام، أحكامها وضوابطها الشرعية.

١١- الضوابط الشرعية لحرية التعبير والإعلام.

١٢-مدخل لمهارات التعامل مع وسائل الإعلام المكتوب والمسموع والمرئي. (تحت النشر)

١٣- أخطاء التفكير المعيقة للنهوض.

الفهرس

مقدمة المفكر الإسلامي د. جاسم سلطان ١
مقدمة المؤلف ٢
التفكير والتفلسف ٦
(١) الخداع المنطقي ١٢
(٢) التفكير التقديسيّ ١٩
(٣) خداع البلاغة والبيان ٢٣
(٤) الوثوقية الزائدة ..... **خطأ! الإشارة المرجعية غير معرّفة.**
(٥) العقلية الوثوقية ومراتب العلم ٢٥
(٦) المبالغة والتهويل ٢٨
(٧) التعميم ٣٢
(٨) التعميم والتفكير الاستثنائي ٣٤
(٩) ضعف التجريد والخيال ٣٧
(١٠) الانحياز ووهم الحياد ٣٨
(١١) تفكير البُعد الواحد ٤١
(١٢) التعصب ٤٤
(١٣) التفكير الجاف والعاطفة ٤٦
(١٤) التفكير الرغائبي ٥١
(١٥) التفكير العجول ٥٣
(١٦) أبيض أسود ٥٥
(١٧) التفكير التبريري ٥٨
(١٨) الوسطية الخادعة ٦٠
(١٩) التفكير الانتقائي ٦٢
(٢٠) التفكير الماضوي والحداثي ٦٣
(٢١) عقلية الندرة ٦٥
(٢٢) التفكير النمطي عدو الإبداع ٦٧
(٢٣) التفكير المبعثر ٧١
(٢٤) التفكير التآمري ٧٣

(٢٥) التفكير الشعبوي ٧٦
(٢٦) تفكير خيار وفقّوس ٧٩
(٢٧) تحليل أو معلومة؟ ٨٣
(٢٨) التفكير النقدي المشاكس..... ٨٧
(٢٩) التفكير السلبي اليائس..... ٩١
(٣٠) خاتمة..... ٩٣
مراجع مختارة..... ٩٤
سيرة المؤلف المختصرة: ٩٥
الفهرس..... ٩٦

تم الكتاب